الجـزء الثـانى

على حافة الحكم ... والهاوية ..

(١) زدنى علمًا بتعريف الفشل .. أيها الشاعر

(٢) اختصار المسافات بحصان كأنه البراق

(٣) بطل أكتوبر .. الجانع المنسى

(٤) ورقة الدكتورة راوية

(٥) ورئيسهم يعلو المكان المدبب

(٦) استقو بنفسك وليس بالآخرين

(٧) إنه رجلنا القادم .. بهدوء

(٨) نصف دستة من المواطنين .. الأحرار

(٩) مدخلنا إلى هذا الرجل

(١)

زدنى علمًا بتعريف الفشل .. أيها الشاعر

لم يتسنَّ لمفتاح الصاوى مشاهدة وحضـور تلك الأفـواج من البشـر الذين جـاءوا ـ على إثر دعوته ـ لتسجيل أسمائهم ضمن مؤسسى حزب (مصر . . الأم) . . ذلك أن مفتاح الصاوى كان رهن التحقيق فى نفس الوقت أمام رجال أمن الدولة الذين انتبهوا على عدة بلاغات من عيونهم المبثوثة فى كل مكان تشير إلى ظهور شخصية يرونها لأول مرة تحمل بذور الثورة والتمرد والتحريض . . وأنه ـ كما أوردت التقارير ـ يرفض نظام الحكم الحالى . . ويرفض العلاقة «الأخوية» مع أمريكا . . والتطبيع مع إسرائيل ويرفض الحكام العرب (خاصة الملوك) . . ويرفض اتفاقية كامب ديفيد . . ويلعن السادات . . والأدهى من هذا كله أنه يدعو لإقامة حزب جديد أسماه حزب (مصر . . الأم) . .

وراحت التقارير السريعة تصف هذه الشخصية . . بدءًا من اسمه مفتاح عبد المولى الصاوى . . فنان تشكيلى على المعاش . . لا يشاهده الناس إلا راكضًا فى الصباح الباكر وسط أشجار ومتنزهات القناطر الخيرية . . يعكف طوال وقته على الرسم والقراءة . . يزوره أبناؤه بشكل منتظم فى إجازة نهاية الأسبوع قادمين إليه من محل إقامتهم بالقاهرة . . لم يُشاهد ـ إلا منذ شهور قليلة ـ يزور أحدًا من الناس ، أو يزوره أحد . . لوحظ أنه وطد علاقته خلال هذه الشهور بشخصيتين قريبتين من مزاجه الشخصى وتوجهاته الثقافية . . أحدهما أديب وشاعر مسيحى اسمه جورج مكسيم . . والثانى هو المحامى الشهير أحمد منصور» . . ثم عرج التقرير على تسجيل نبذة سريعة عن جورج مكسيم هذا . . إذ إنه «كان محسوبًا وبشكل بارز على الجماعات الشيوعية قبل

تفككها ونزولها إلى باطن الأرض إما هربًا أو تحفزًا . . ولكنه فى مجمله يعتبر من المعارضين الذين يصفون أنفسهم بالتقدميين الذين لا يترددون فى إعلان غضبهم على النظام فى أى مجال أو لقاء أدبى أو تجمع ثقافى يتيح لهم ذلك . . أما أحمد منصور فهو : معروف لكم ، ولا نملك المزيد عن تقاريرنا السابقة عنه ما عدا ذلك «المشروع» الذى جمعه مؤخرًا بمفتاح الصاوى . . وجورج مكسيم!! . .

كان إمام إمام قد جاء ضمن من زحفوا على المكتب . . متورد الوجه على غير عادته . . يفرك كفيه ببعضهما البعض كمن عثر على ضالته . . وراح يعيد على أحمد منصور قصة ماحدث أمس الجمعة فى المسجد الجامع بالقناطر الذى يقع على مرمى حجر من قسم الشرطة . . وكيف تمكن الأستاذ مفتاح الصاوى من امتلاك نوازع المصلين فى مداخلة سياسية اعتدل لها كل من فى المسجد ، ولم يحرصوا على انصرافهم السريع الذى يفعلونه عقب كل صلاة . . وأنه عندما ختم مداخلته بإعلان الحزب الجديد وعنوان مقره المؤقت راح الجميع خارج المسجد يسألون عن العنوان لكى يسجلوا أسماءهم . . وأن الأعداد التى زحفت يوم الجمعة فى المساء إلى المكتب ـ الذى وجدوه مغلقًا ـ تعتبر ضعف الأعداد التى حضرت اليوم السبت . . ومن المؤكد أنهم سيزدادون يوم الأحد القادم . .

راح أحمد منصور وهو مذهول يدير قرص التليفون طالبًا صديقه مفتاح الصاوى . . وعندما وصَفَتْ له الشغالة العجوز هيئة من زاروه واصطحبوه معهم أيقن أن صديقه المشاغب فى زيارة ـ لا بد منها ـ لجهاز أمن الدولة . . فاحتار فى أمر نفسه وأمر صديقه وعمد إلى التليفون وطلبنى . .

ـ إنت فين يا جورج؟ . .

وقبل أن أرد عليه . . واصل حديثه . .

ـ تعال بسرعة . . المكتب مليان ناس جايين يسجلوا أسماءهم فى الحزب . . وأنا متأكد دلوقت إن مفتاح فى أمن الدولة . . اسمع . . أنا حاستأذن من الناس . . إنت تيجى تتكلم معاهم . . وتسجل أسماءهم وعناوينهم علشان يمشوا . . لغاية ما نتصل بيهم . . مش عاوزين تجمعات دلوقت فى المكتب . .

وانطلقت إلى مكتب أحمد منصور لأجد أن زوار الليلة ليسوا هم زوار كل ليلة . . فهم ليسوا أصحاب قضايا بينهم وبين بعضهم البعض . . ولكنهم أصحاب قضية الوطن . . قضيتهم مع الديمقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية جاءوا يطلبون البحث لها عن حل . .

ولما زاد عددهم عن حد استيعاب صالة المكتب وغرفه زحفوا حتى ملئوا بسطة السلم ثم امتد زحفهم إلى أن وقفوا على درجات السلم وحتى مدخل العمارة بالشارع . . وتناثر بعضهم فى عرض الطريق . .

رحت أحدث الجموع وأنا آخذ فى الصعود أمامهم . .

ـ فيه كشف حيمر عليكم . . كل واحد يسجل تليفونه واسمه وعنوانه . . وبإذن الله حنحدد لكم ميعاد أول اجتماع . .

لا أنكر أنه قد أخذتنى رجفة . . ولكنى لم أجد لها سببًا محددًا . . هل هو الخوف مما حدث فجأة ودون انتظار؟ . . الخوف الذى يجعلك مرهونًا بزيارة مهينة من جهاز الأمن . . زيارة يشدك فيها أحد الضباط من ياقة قميصك أمام هذا الجمع المتألق ويدفع بك فى مؤخرة « البوكس » محاطًا بالحرس والسلاح كأى مُهرّب مخدرات . . ذلك أنك تقوم بتهريب ما هو أدهى وأمر ـ فى نظر النظام ـ تهريب الفكر . . وطلب التغيير . . والرغبة فى إيجاد حل لمأساة الوطن . . وجدتنى غير آبه أو مهموم بحدوث تلك اللقطة التى رسمها لخيالى فورًا . . حتى لو حدثت ـ وهذا أمر وارد ـ فأنا فى حال تقبل ورضا لها . . إذن . . فلم الرجفة؟ . . هل هى رجفة الأب أمام غرفة التوليد ينتظر صرخة وليده المأمول بعد طول انتظار وملل وتململ سنوات طويلة مفعمة بالأسى والرجاء؟ . . هل هى النبوءة التى صحت بعد أن كانت قد طُمرت تحت أنقاض خيبة الأمل . . والشعور باللاجدوى؟ . . هل هو الشعور بالأمل المفاجئ . . بعد يأس أسود وحال أشد سوادًا ترسخت فيها سياسة الركود والبلادة . . سياسة الكذب والضحك على الذقون . . سياسة تورط الحكومات المتعاقبة فى عقد صفقات البزنس مع رجال الأعمال على حساب أموال الفقراء وودائع الناس فى البنوك؟ . . هل هو الشعور بالفرحة بإطلالة مأمولة لغرسٍ ربما يتنامى فى أرض خراب ، أخذنا الظن أنها ـ أبدًا ـ لن تثمر زرعًا؟ . .

تدافع الناس خلفى حتى تكدسوا داخل المكتب وامتدوا رغمًا عنهم خارجه عندما أطلق أحدهم قولاً محتواه أننى ثالث الثلاثة المؤسسين للحزب . . ووجدتنى بحاجة إلى هدهدة نوازعهم بكلمة ما . . ووجدتنى أبدأ معهم الحديث من حيث يجب أن أنتهى . .

«أنتم تعلمون أننا ما زلنا محكومين بقانون الطوارئ . . القانون الذى يجرّم اجتماع أى عدد من الناس دون موافقة مسبقة . . ورغم أن هذا القانون عار فى جبين مصر وعار فى جبين الحكم . . الحكم الذى لم يخجل من عدم إلغاء هذا القانون ووقف العمل به طوال اثنين وعشرين عامًا رغم صيحات الاستنكار التى يطلقها أغلب السياسيين والمثقفين الشرفاء دون جدوى . . ومع هذا فنحن مضطرون لاحترامه على مضض . . والأخذ به دون اقتناع حتى لا نُمكِّن أجهزة القمع من النيل منا . . ولذا فأنا أطمئنكم أن استجابتكم لدعوة الانضمام للحزب لم تثلج صدورنا فقط قدر ما حمّلتنا مسئولية تاريخية أمام أنفسنا بأن نمضى قُدُمًا بكم ومعكم لإخراج هذا الحزب إلى حيز الوجود . . وثقوا أننا لن نبحث طويلاً ونرهق أنفسنا فى إعلان برنامج هذا الحزب . . يكفى أن نقول إن برنامجنا الناجح مقدمًا سيستمد نجاحه من تفادى أسباب الفشل التى تورطت فيها حكومات نظامى السادات وحسنى مبارك . . الحكومات التى تضع برامجها لإرضاء آلهة البيت الأبيض . . وطواغيت البنك الدولى . . وصندوق النقد . . البرامج التى تدس السم فى العسل وتقدمه للشعب . . البرامج التى عنوانها الرخاء والحركة . . وجوهرها الفقر والركود .

اكتبوا آراءكم . . اكتبوا اقتراحاتكم . . ليتخيل كل واحد منكم أنه ستواتيه الفرصة ليكون الوزير المسئول فى وزارة ما . . فليكتب ما يراه مناسبًا لإنقاذ هذه الوزارة . . صحة . . زراعة . . صناعة . . تجارة . . تعليم . . إلى آخره . . من هذه الآراء والمقترحات سنكثف برنامجنا ، ثم سارعوا الآن بتسجيل أسمائكم وتليفوناتكم وعناوينكم حتى نمهد لمؤتمر قريب يجمعنا بكم» . .

ثم . . وفى عبارات مليئة بالتحذير رحت أوصيهم :

« . . سارعوا يا سادة . . وانصرفوا قبل وصول رجال الأمن حتى لا يشغلوكم

ويضيعوا وقتكم الثمين . . الوقت الذى نحن بحاجة إليه لإنجاز مهامنا القادمة . . المهام الكبرى التى فى انتظارنا» . .

وبدلاً من بقائى أمامهم فى المكتب . . اخترت أن أهبط أمامهم الدرج . . وأنا أردد :

. . . «لعلكم تعلمون أن مفتاح الصاوى الآن رهن التحقيق فى نيابة أمن الدولة، وأن أحمد منصور لحق به إلى هناك . . ولا يرضيكم أن أجلس هنا وكأننى تخليت عنهما . . فلتأذنوا لى باللحاق بهما إلى سراى النيابة» . .

لم أكن أعلم أن فكرتى بالذهاب إلى نيابة أمن الدولة للحاق بمفتاح الصاوى وأحمد منصور والتى كان القصد منها هو تفتيت تجمع الأهالى فى المكتب ستتحول إلى دعوة لهؤلاء الأهالى بالذهاب خلفى لإنقاذ مفتاح وأحمد كما تراءى لهم . . وكانت الاستجابة الفطرية من هؤلاء القوم أكبر دليل فى نظرى على صحوة وطنية تعيش بداخلهم ربما دون أن يحسوا بها . . ولكنهم وجدوا الذريعة المناسبة للاستجابة لنوازعها التى تعيش فى قلق بدواخلهم . . كان لا بد لى أن أقف أمامهم مرة أخرى وقرب مدخل بناية النيابة مخاطبًا لهم وحاثًا إياهم على وجوب الانصراف . . «فنحن حتى الآن لا تجمعنا رابطة تجعلنا نتحدث ونحن نقف تحت لافته هذه الرابطة . . تلك اللافتة التى نسعى إليها لتحمى كلمتنا . . وتوحد جمعنا . . وأن هذا اليوم يا سادة آتٍ لا ريب فيه . . » . .

وانصرفت مسرعًا دون أن أتأكد من مدى استجابتهم لطلبى بالانصراف . .

وما إن أرسلت ببطاقتى إلى السيد وكيل النائب العام طالبًا المثول أمامه منضمًا إلى السيدين مفتاح الصاوى وأحمد منصور حتى شاهدت من يدلفون تباعًا من رجال الأمن وهم يرسلون إلىّ نظرات شذرة مما أكد لى أنهم فى طريقهم للإبلاغ عن شخصى وخطبتى القصيرة التى خاطبت بها جمعًا صغيرًا من المواطنين أمام مبنى النيابة . . ولذا فقد كان السؤال الأول الذى واجهنى به وكيل النيابة بعد أن صافحته وصافحت مفتاح وأحمد . .

ـ ما هو اليوم الذى هو آتٍ لا ريب فيه يا سيد جورج؟ . .

تذكرت أن هذه آخر كلماتى للجمع الصغير . .

ابتلعت ريقى ابتلاعًا لسرعة المفاجأة . . وقلت :

ـ اليوم الذى نعلن فيه قيام حزبنا الجديد . . «مصر . . الأم» . .

ألقمنى وكيل النيابة بسؤال مباغت :

ـ ومنذ متى أيها الشاعر تقوم الأحزاب قبل تأسيسها بتدبير تجمعات التحريض والإثارة والبلبلة؟ . .

قلت :

ـ لم نحرّض . . ولم نُثر البلبلة . . ولم نَدْعُ إلى الثورة . .

عاد فسألنى بصيغة الاتهام :

ـ أنت منذ دقائق اتهمت الحكومات المتتابعة فى نظامى السادات وحسنى مبارك بالفشل . .

رددت على الفور :

ـ هى كذلك فعلاً . . وأنا لم أذكر سوى الحقيقة ؛ فمفهومى عن الإثارة والبلبلة هو الاتكاء على أكاذيب من صنع صاحبها . . وأنا لم أختلق أكاذيب لأستند إليها وأنا أخاطب الناس . . وما دام الأمر كذلك فأنا بحاجة إلى أن نتفق سويّا على تعريف : الفشل . .

ندت عنه ضحكة ساخرة . . واستند بكرسيه إلى الحائط وصوب إلىّ نظرة فاحصة . .

ـ إذن، زدنى علمًا بتعريف الفشل . . أيها الشاعر . .

ـ الفشل هو ألا تصل إلى غايتك . . وفى أسوأ الحالات يكون الفشل هو تعثرك فى المحافظة على الحد الأدنى من النجاح . . أو تورطك فى عدم وقف الانهيار . . وكلها حالات لا يمكننا أن ندعى أن حكوماتنا الموقرة ـ وما أكثرها ـ نجحت فيها . .

أشار وكيل النيابة للكاتب أن يتوقف عن الكتابة . . وراح يتفحصنى وكأنه حائر فى صك سؤال جديد . . وهنا عاجله أحمد منصور برأى سريع . .

ـ اطلب منه أن يضرب لك أمثلة يا مرقص بك؟ . .

«مسيحى . . مثلى . . » . . هكذا قلت لنفسى . . عندما حانت التفاتة من مرقص بك إلى أحمد منصور . . وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة . .

ـ أمثلة!! . . إنت عايزنى أفتح خزان المياه اللى ورا السد . . أفتح سَدْ ما يِنْسدْ . .

ثم تنهد وهو يضع يده على جبهته كمن يتحسس صداعًا ألمَّ به . . وراح يخاطب أحمد منصور ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أكيد إنت شايف قد إيه أنا قدام حالة غير عادية . . أديبٌ شاعر . . وفنان تشكيلى مشاغب . . ومحام محترم . . وناس وطنيين بكل معنى الكلمة . . وأنا دلوقت بس افتكرت هيكل لما رفض عنوان (تحقيق جنائى) كتعبير عن حالة المساءلة التى وضعوه فيها أيام السادات والتى خرج منها زى الشعرة من العجينة واعتبرها (حوار سياسى) . . وأنا مش مستعد أعمل معاكم (تحقيق جنائى) لأن مفيش حاجة اسمها كده . . ولا (حوار سياسى) . . لأنى . . (وهو يضحك) . . مش ناوى أدخل الحزب معاكم . .

ثم تنهد تعبًا وإرهاقًا . . وراح يكمل :

ـ إنت يا أستاذ أحمد . . مع الأستاذ مفتاح كتبنا وراكم أكتر من ستين صفحة . . وواضح إن السيد جورج عنده استعداد يمللى ستين صفحة كمان . . (وراح يضحك) . . شوف انطلق إزاى وهو بيعرّف الفشل . . والله ولا الشيخ الشعراوى . . زى ما يكون حافظ إجابة السؤال قبل ما نسأله . .

ثم صمت قليلاً . . وراح يُكمل مخاطبًا أحمد منصور :

ـ التقارير اللى عندى خطيرة لدرجة الإحراج . . الإحراج اللى يجبرنى إنى لازم أخليكم تحت التحفظ حتى انتهاء التحقيق . . ولأنى فعلاً ألمح براءة المقصد . . فأنا حاعمل لكم انصراف من سراى النيابة على وعد إنى أشوفكم بعد بكره الساعة سابعة مساء . .

كان وكيل النيابة مهذبًا إلى حد الدهشة . . فقد استعمل الكلمات البديلة التى تحمل أدب المتهذب فبدلاً من أن يقول «أخليكم فى السجن حتى انتهاء التحقيق» اختار كلمة «تحت التحفظ» . . بدلاً من السجن . . وبدلاً من أن يقول «إفراج من سراى النيابة» اختار كلمة (انصراف) فكلمة إفراج تعنى أننا كنا رهن الحبس . .

قال لنا أحمد منصور : إن « مرقص بستخاروس » هذا مشهور بأدبه . . وإننا محظوظون لأننا (وقعنا) أمامه . . ولم يقل لنا أحمد منصور أن مرقص هذا نصحه سرًا بالمسارعة بتقديم طلب إنشاء الحزب غدًا فى الصباح حتى يأتى له بعد الغد فى المساء ومعه الأوراق التى من الممكن أن تساعد على إنقاذه وإنقاذنا بالتالى من براثن التحقيقات التى من الممكن أن تصل بنا إلى المحاكمة ذلك أنه سيستند فى التحقيق إلى أننا حزب تحت التأسيس . .

وفى المساء وعندما اجتمعنا بعيدًا عن مكتب أحمد منصور ومرسم مفتاح الصاوى كان لمفتاح الصاوى رأى آخر :

ـ يا ابن منصور . . كان لازم تفهمها وهى طايرة هو صحيح الأستاذ مرقص راجل أخلاق مقلناش حاجة . . وابن بلد . . برضه مقلناش حاجة . . بس الأربع تيران اللى جم ودخلوا عليه أكتر من مرة يوشوشوه مرة . . ويتكلموا معاه على جنب فى الأودة التانية مرة . . كانوا بيبلغوه أول بأول باللى بيحصل فى مكتبك . . وهجمة الناس غير المتوقعة . . وزحف الناس اللى فى المكتب ورا عمنا جورج وهو جاى لنا النيابة . . ظهور الناس فرقَتْ معاه . . الظهور المفاجئ للشعب لخبط الدنيا معانا ومعاهم . .

وبهدوء راح يسأله أحمد منصور :

ـ عاوز تقول إن السلطة عملت حساب للجماهير؟ . .

ـ السلطة هربت من احتكاك مالوش داعى مع الجماهير . .

ـ دا تفسيرك؟ . .

ـ طبعًا . . إنت وانت خارج من النيابة كان فيه ناس قد إيه واقفين ينتظرونا ويسألوا عننا؟ . . الناس دى أغلبها ميعرفناش . . ماشافوش وشنا عمرهم قبل كده . . هو دا

اللى يخوّف السلطة . . واحد أعطاك ثقته وبيخاف عليك من أول لحظة . . وبدون تردد . . دى معناها إيه؟ . . معناها إنك دخلت جوّاه . . وإنك بقيت حته منّه . . مش هى دى الزعامة؟ . .

وبعدها راح مفتاح الصاوى يؤكد . . أن ما يدور الآن فى المنطقة العربية من تحفز وتنمر تقوم به الشعوب حاليًا فى مواجهة الحكام استنادًا إلى ما قامت به أمريكا من كشف المستور حول فساد أنظمة هؤلاء الحكام وتورطهم فى قمع شعوبهم وسرقة خيراتهم جعل بعض الأنظمة تعمد إلى تجميل وجوهها الملطخة وتتمسح خجلاً وخوفًا فى إعلان بعض الإجراءات التخفيفية . . تخفيف قسوة الأظافر الناشبة فى الحلوق الظامئة للكلمة والجائعة للطعام . . وراح يضرب الأمثلة بما حدث عندنا فى مصر من تخفيف بعض القوانين العسكرية المقيدة للحريات والمصالح المدنية . . ثم إلغاء محاكم أمن الدولة . . ومنح الجنسيات لأبناء الأجانب من أم مصرية . . إلى آخر تلك القشور التى لا ترقى إلى ما يصبو إليه الناس من إطلاق عام للحريات المدنية وتدمير الكرة الحديدية المعلقة فى رقاب الناس ألا وهى قانون الطوارئ . .

قلت له :

ـ معنى هذا فى نظرك أن وكيل النيابة كان يستند إلى تعليمات نُصح بها للتخفيف عن الماثلين أمامه . .

قال لى :

ـ إذا قلنا إن كل من يَمْثُل أمامه ليس شرطًا أن يكون مجرمًا أو مُدانًا فإنه بجانب صلاحيته الشخصية وقناعته الداخلية يمكنه بهما ـ وبما لديه من تعليمات ـ أن يتخذ مثل هذا الموقف المتحضّر الذى واجهنا به . .

ثم أضاف :

ولكنه من المؤكد سيكون على خلاف ذلك تمامًا مع آخرين تورطوا بالعمل ضد الدولة بتنظيم مسلح . .

ردد أحمد منصور : طبعًا . . طبعًا . .

ثم التفت إلىّ وسألنى :

ـ هل الكشوف التى بها أسماء الناس موجودة بالمكتب؟ . .

أجبته : موجودة مع الموظفين . .

قال وهو يهم بالنهوض :

ـ يلاّ بينا . . عندنا شغل كتير . . يدوب يخلص ع الصُّبح . .

* * *

(٢)

اختصار المسافات بحصان كأنه البراق

ولأن أحمد منصور لم يكن قد انفصل عن حلمه القديم بتأسيس حزبه الواعد فإنه وبسبب مطاردته لهذا الحلم . . ومطاردة هذا الحلم له أصبح يملك كمية هائلة من الأوراق والمستندات الحاملة لمشروع حزب (مصر . . الأم) والتى لم يبق سوى أن يمهرها بتوقيع المؤسسين وعناوينهم ووظائفهم . .

فبرنامج الحزب الذى تمتع طوال السنوات الماضية بحالات كثيرة ومضنية من إعادة الصياغة وحذف فقرات كاملة منه بعد إضافة عديد من الفقرات الجديدة وتكثيف المعانى فى بند ما على حساب الإيجاز فى بند آخر : كل هذا كان يفعله أحمد منصور وكأنه يخاطب نفسه فى غرفة مغلقة بناء على المتغيرات الحياتية التى تجبره على تلك المتغيرات فى نمط السلوك الاجتماعى والثقافى والسياسى الذى يعتمد على عامل الصدفة ، وليس على عامل التخطيط المسبق . .

طرح أمامنا أوراقه . . وخاطب مفتاح الصاوى وهو يقدم له ورقة بيضاء :

ـ ارسم حصانك المشاكس أيها الفنان . . وضع أسفله شعاركما المختار أنت وجورج «إن قلت كلمتك . . لا تمض» سنطبعه أعلى كل الأوراق وأسفل رسم الحصان .

ثم خاطبنى قائلاً : هل يمكنك استدعاء الدكتورة راوية عبد العظيم الآن . .

تذكرت الحوار الذى دار بينى وبين راوية مساء أمس حول ما تناهى إلى سمعها من مقارعة دارت فى المسجد بين إمامه الشاب الشيخ صلاح السقا وبين مفتاح الصاوى

الذى كانت تعرفه من خلال حديثى عنه . . كانت راوية قد عَرَفَتْ منى أن مفتاح الصاوى يحمل فى داخله شخصية مشاكسة ترفض التبلد والركاكة والتصرفات التافهة، وتكره كل ما يمت للزيف والمداهنة بصلة ؛ ولذا فقد كان غريبًا فى مجال عمله، ولا يتحسر على ضياع حقه المكتسب عندما يتجاوزه إلى شخص آخر لا يستحقه . . ولأنك جربت يا دكتورة راوية الظلم وسطوة الضلال عندما يزيح الحق جانبًا وكادت حياتك تتحطم أمام قسوة البشر فإن مفتاح الصاوى وهو يواجه مثل ذلك العنت كان يبدو لمن حوله أنه يذوق طعم القسوة بتلذذ حتى أنه أفسد على القُساة تلذذهم بغزواتهم الظالمة ضده . . تلك هى قوته . . قوته فى ألاّ يبدو ضعيفًا أمام من يمتلكون مفاتيح القوة . . ولا يستجدى بعض رضاهم حتى لو دنا من الموت . . ولم يعرف عنه الناس أن هناك ما يشغله ويسعى لامتلاكه من متاع الدنيا سوى الفن . . إذ قال عن نفسه : «أنا أعيش الحياة، وكأنى أرسم لوحة» . . ثم قال : «وهناك فرق أن تأخذك الدنيا من فراشك الهنىء . . أو تُلقى بها أنت من الشباك قبل أن تنام » . .

ويضيف : «تعوّدت أن أنسى كل شىء قبل نومى . . ولكنى أقوم فجأة مفعمًا بالحبور إذا ألهمتنى قريحتى بإضافة لمسة معينة إلى لوحة معينة . . ربما يستغرقنى ذلك دقائق معدودة أو ساعات طويلة أنسى فيها فراشى وكل ما يحيطنى ويهمنى حتى موعد الذهاب إلى عملى . . تلك هى سعادتى» .

قلت لأحمد منصور : الدكتورة راوية تتابع ما يحدث منذ الأمس . . وهذه السيدة منذ فكرنا فيها كشخصية قويمة جديرة بكسب احترام وحب الناس فيما لو انضمت إلينا، وأنا أدنو منها قليلاً قليلاً حتى استطعت أن أجعلها تعيش بعض أحلامنا . . لقد ساعدنى على ذلك عوامل المرارة التى راحت تفيض من نهر حياتها التى رهنتها للمستشفى ودار الأيتام . . كانت تقص علىّ بكل ألم ما تسمعه عن الفساد الرهيب فى وزارة الصحة ، وكيف أن التغيير المفاجئ لوزيرها بشكل لم يتعود عليه النظام أو لم نتعوده من النظام إنما حدث لأن ما كان يحدث من فساد زكم أنف النظام نفسه . . وجعل بعض كُتاب السلطة يخرجون عن خطوطهم المرسومة ويسألون الوزير علنًا : لماذا تذهب إلى سويسرا علنًا كل عدة أسابيع فى طيارة المليونير رامى لكح؟ . . ورامى لكح هذا أحد لصوص البنوك، ولكنه سطا بعد ذلك على وزارة كاملة بواسطة

وزيرها . . وبعد ذلك فرقتهما الأيام يا ولْداه . . رامى يعيش هاربًا فى باريس . . والوزير المفدّى أقيل . . وكلاهما يهنأ ولا شكَ بغنيمته . .

ثم أكملت لأحمد منصور :

راوية تكاد تموت من الغيظ . . لا تصدق ما يحدث . . وتتساءل : أنا فى مجالى بالطب اكتشفت وشاهدت وسمعت هذه المهازل ، وهناك كثيرون مثلى يشاهدون مثل هذه المهازل كلٌ فى مجاله . . أليس هذا ما يقولون عنه : استشراء الفساد؟ . . من يوقف هذا الطوفان؟ . . من يجعل هذا الوطن يثوب إلى رشده؟ . . وكيف يقف الرئيس نفسه موضحًا أن مثل هذه التجاوزات موجودة فى كل بلاد العالم؟ . . هل يقصد بذلك أن الفساد صار عملة عصرية؟ . . ولماذا لا نتشبّه بالعالم الخارجى إلا فى خيبة الأمل؟ . .

وكثيرًا ما تساءلت راوية عبد العظيم فى جلساتى معها : «ما الذى يمكنك أن تصبو إليه وتتمناه لهذا الوطن أيها الشاعر . . ؟ . . ما الذى يمكنك أن تختاره إذا وضعوا أمامك أحد خيارين : دستورًا سيئًا مع رئيس عادل وشجاع؟ . . أم دستورًا عادلاً ورئيسًا سيئًا؟ . . فأنت لا يمكنك فى العالم الثالث أن تحلم بتلك الرفاهية . . لا يمكنك أن تطمع فى دستور عادل ورئيس عادل وشجاع . . وكم من الوقت سيمضى علينا لنصل إلى هذا الحلم أو هذا المطمع : نظام عادل يحمى دستورًا عادلاً؟ . . أو دستور عادل يحميه نظام شجاع؟» . .

قلت لها : الدساتير العادلة أخذت من السلوكيات العادلة للزعماء المعتدلين . . وكم من نظام أعاد تعديل الدستور لصالح شعبه . . ولعلك تذكرين أن عمر بن الخطاب سن أسس العدل والعدالة من خلال ضمير وضاء ، وليس من بنود الدستور . . وكذلك عمر بن عبد العزيز . . .

قالت لى مقاطعة : كان ضميرهما القرآن . . والسنّة . .

قلت لها : بل كان سلوكهما البشرى يستمد ظهره ونقاءه وقوته من روح القرآن . . السلوك أولا . . انظرى إلى سلوك كل من جاءوا بعدهما . .

هز أحمد منصور رأسه موافقًا . . وراح يرنو إلى صديقه مفتاح الصاوى المنهمك توًا فى رسم شعار الحزب . . الخصان الجامح الواقف على رجليه الخلفيتين فى لقطة

انسيابية ركزت على تكبير رأسه المفتون الشامخ ثم جسمه ورجليه اللتين التقيتا كرأس السهم عند نقطة ما على الأرض . .

التفت إلىّ أحمد منصور وبيده كمية من الأوراق كانت تحمل أسماء الجمهور الذى تدفق اليوم لتسجيل اسمه فى الحزب . . وما زال يرى بعضهم منتشراً هنا وهناك فى المكتب يتعامل مع الموظفين الشباب من طاقم العمل ملاحظًا أن من يخرج منهم يحمل فى يده ورقة ، بادر أحمد منصور بإعداد نسخ كثيرة منها وبها برنامج الحزب .

قال لى :

ـ أمامنا ساعات محدودة لنجهز ملف التقديم . . لدينا أكثر من خمسمائة اسم من كافة طوائف الشعب . . بعضهم كتب اسمه وعنوانه ووظيفته ، وقام بالتوقيع فى نفس السطر . . والبعض وضع بياناته ناقصة . . ولم يوقع . . البعض خطه مقروء ، والبعض الآخر خطه يُقرأ بصعوبة . . يهيأ لى أن هذه الكشوف نفسها التى لا تحمل التنسيق الكافى هى التى يجب أن أرفقها كبيان بأسماء المؤسسين . .

هتف مفتاح الصاوى من بعيد . . وهو يمد يده اليمنى فى الهواء أمام ناظريه وبها رسم الشعار آخذًا فى تأمله :

ـ الكشوف دى تروح « بعبَلْها » بعرق الفلاّح . . وشحم الميكانيكى . . وزيت البقال . . إوعوا تعملوا كشوف جديدة على الكمبيوتر . . الكشوف اللى الناس وقّعوا عليها هى دى الوثيقة الحقيقية . . أى كشوف تانية حتكون فعلاً منظمة ومرتبة ولامعة . . بس فى نظرى مش نضيفة . . وبعدين . . إنت ناسى إنك لو نسخت كشوف جديدة لازم تجيب الناس توقّع عليها؟ . . الناس خلاص وقّعوا . . مفيش داعى لتزويق الورق . . زوّقوا الهدف . . بروزوا المصلحة . . هو دا المهم . . الورق اللى معاكم ده أنضف ورق . . إوعوا تغيّروه . .

كنت أتحدث مع راوية فى التليفون وأنا أستمع إلى ما يقوله مفتاح الصاوى . . وكنت أهز رأسى بالموافقة على شيئين فى وقت واحد . . ما تقوله راوية فى التليفون . . ومايقوله مفتاح الصاوى الآن . .

ـ أنا شخصيًا موافق . . إدينى فرصة أعرض الدعوة دى على أحمد ومفتاح . . ربع ساعة واطلبك تانى . .

اقتربت منهما، وكانا قد تجاورا على مائدة الاجتماع . . رحت أتأمل رسم الشعار الذى لم يبق من تعبيره القوى سوى أن يصدر الحصان صهيلاً . . جلست فى مواجهتهما ووجهت حديثى إلى أحمد منصور :

ـ الدكتورة راوية قدّمت اقتراحًا لا بأس به . .

ثم واصلْت :

ـ هى عندها صالة نشاطات واسعة فى دار الأيتام . . قالت إن المكتب عندكم أكيد مش حيتسع لأى اجتماع بتفكروا فيه . . فهى بتقترح اننا نعمل اجتماع تحضيرى نقعد فيه مع الناس اللى سجلوا أسماءهم وتليفوناتهم قبل ما نقدم طلب إنشاء الحزب . . إذا وافقنا على الاقتراح ده هى مستعده تجهّز الصالة وتزوّد بها الكراسى فى ظرف ساعة واحدة من دلوقت . .

هتف مفتاح الصاوى من كل قلبه :

ـ الله . . الله . . قد إيه حيكون فيه معنى فنى وإسقاط أدبى له دلالات عالية لانطلاق الحزب من دار أيتام . . أنا شخصيًا موافق . .

وهز أحمد منصور رأسه موافقًا وقد داعبت ملامحه ابتسامة تحمل علامات الرضا والامتنان . . وأشار لمحامٍ شاب كان على مقربة منا :

ـ يوسف . . يوسف . . تعال . . إمسك الكشوف دى . . واتصل بأصحاب التليفونات المسجلة فيها . . وعرّفهم ان فيه اجتماع تمهيدى بكره الساعة خمسة مساءً . . فى مبنى دار الأيتام اللى جنب مستشفى الدكتورة راوية . . واوصف لهم المكان . . المكان مش بعيد . . فى مدخل القناطر . . واتصل أول اتصال بالمعلم إمام . . تليفونه عندك . . ييجى على هنا . . دلوقت . .

ثم وجّه نظراته إلينا . . وهتف :

ـ فكرة عظيمة . . إيه اللى بيحصل ده؟ . .

أحمد منصور يريد أن يقول :

انتظرنا سنوات طوال . . نحلم ونفكر وندبر ونتمنى ونتردد ونتحدث . . ونقدم أرجلنا للأمام ثم نسحبها للخلف . . تأخذنا متاهة الأيام . . ويأس الحال . . وفجأة تتحرك الأمور دفعة واحدة . . وما كان من الممكن حدوثه فى شهور طويلة من العمل التنفيذى يحدث الآن فى ساعات محدودة ، كل هذا لأن طرقة رفع الستار جاءت طبيعية وفى موعدها ومكانها الصحيحين . . حزبنا الموعود هذا . . فكرنا فيه من أجل الجماهير . . سياسته وبرنامجه وأهدافه كلها من أجل مصلحة تلك الجماهير . . وكنا نفكر نيابة عنهم وهم فى غيبة عنا . . والواقع أننا كنا فى غيبة عنهم رغم ما نتعذب فيه من أجلهم . . إلى أن جاء هذا الفنان المشاكس فحرّك الناس . . حرك مشاعرهم فتحركت أقدامهم إلى هنا . . لك الله يا مفتاح ! . . لقد جئتنا بالمفتاح . . فعلاً . .

ثم التفت إلى مفتاح وردد مرة أخرى :

ـ إيه اللى بيحصل ده؟ . . إيه اللى انت عملته ده؟ . .

ابتسم مفتاح فى ثقة :

ـ ولا حاجة . . أنا نطّيت ركبت الحصان . .

قلت له :

ـ لأنك فارس . . فارس اختصر المسافات فى خطوة واحدة بحصان كأنه البراق . .

* * *

(٣)

بطل أكتوبر .. الجائع المنسى

كان البرنامج الذى عرضناه على الجمهور صادمًا لما به من جرأة . . وشائقًا لما به من أمل . . وسهلاً لما به من منطق . . بدأ أحمد منصور بالتحدث عن سياسة الحزب فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية ، وأولها العلاقة مع إسرائيل كدولة جوار تم توقيع معاهدة صلح معها منذ ربع قرن مضى . . وهذه المعاهدة مُلزمة لطرفيها بميثاق دولى ترتب عليه قيام أمريكا بضمان سريان المعاهدة مما فرضها كطرف ثالث . . وطبائع الأمور التى تعودنا على قبولها رغم أنوفنا هو أن إسرائيل فى مأمن حتى لو نقضت المعاهدة واعتدت على أراضينا . . فميزان القوة دائمًا معها بحكم الهيمنة الأمريكية على الكون . . وبحكم دخولها كطرف يحمى إسرائيل حتى لو تجاوزت حدودها إلى حدود الجيران ومنهم مصر . . وكان مما قاله للحضور :

ـ «لا نريد أن نبكى على اللبن المسكوب ، و من بعضنا أنور السادات ؛ لأنه علق فى رقابنا وأرجلنا أثقالاً من الحديد أوقفت فينا حتى ، ولة التحرك لسبر أغوار هذا العدو الذى تحوّل على يدى السادات إلى صديق رغمًا عن . . لقد مات السادات قبل أن يتعرف على حقيقة الشعور الشعبى تجاه الصديق المزعوم إسرائيل ، وأن حلمه بإنهاء كلمة الحرب بيننا وبين هذا الصديق لم يكن سوى الوهم الساذج الذى اشتراه رجل ريفى من عصابة فى المدينة . . أين سيناء؟ . . هى معنا . . وليست فى أيدينا . . إنها مساحة خالية من القوة الحقيقية التى تحميها . . نصفها فراغ ونصفها الآخر تجوسه قوات الأمم المتحدة ونزرع على شواطئه ـ وعلى استحياء ـ بعض القرى السياحية . . وكل هذا مرهون بوثبة شارونية مجنونة يجعل فيها سيناء مرة أخرى عازلاً جغرافيا آمنًا بين

إسرائيل وعدوها الحقيقى مصر . . ولأننا الآن لا نملك قوة لعمل وثبة مضادة فيجب أن ندرأ عن أنفسنا وعن الأجيال القادمة السقوط تحت سنابك الجنون الإسرائيلى والغرور الذى ران على سياستها بعد تحطيم كافة الأصابع فى قبضة المواجهة . . وكافة الأسنان فى ترس الآلة العربية . . وتأملوا معى الخريطة الجديدة . . أين مصر؟ . . أين العراق؟ . . أين ليبيا؟ . . وقريبا جدّا سنتساءل : أين سوريا؟ . .

لا يكفى أن نعترف بالواقع الأليم ونستسلم له . . فهذا هو الهوان المضاعف . . ولا يكفى أن نتحاشى إغضاب الصديق المزعوم حتى لا يجد فرصته فى أن يتحول بين يوم وليلة إلى عدو غادر فى مواجهتنا كالأمس القريب . . ولا يكفى أن ننظر بعين الحسرة إلى أرضنا الحزينة سيناء تلك الممنوحة لنا على طبق معاهدة لا تحمل شرعية الموافقة الحقيقية من الشعب . . فلعلكم تذكرون أن من مهازل الديكور الساداتى أنه استفتى الشعب على هذه الاتفاقية بعد أن قام بتوقيعها وعاد من أمريكا تحت أقواس النصر الخادعة المخدوعة . .

حزبنا لن يرفض الاتفاقية . . ولن يتورط فى محاولة إلغائها من طرفنا . . ولكنا سنطلب تعديلها بما يؤكد استمرارها ، وبما يشير إلى حسن نيتنا فى العمل بها وترسيخها مدى الحياة» . .

(وهنا حدثت همهمة بين الحضور . . وتعالت بعض الأصوات الرافضة . . مما جعل أحمد منصور يتخلى عن أوراقه ويصمت طويلاً إلى أن يهدأ اللغط ويقول) :

حزبنا منذ ولادته اليوم يتحيز للديمقراطية وقبول الرأى الآخر ، وسوف يأخذ كل منكم فرصته فى الحديث والمعارضة . . فقط دعونى أكمل رأيى . . كل ما أرجوه منكم أن نتخلى عن الصياح والتصفيق . . مصيبة السياسة فى مصر أنها غير مفهومة ، ومع ذلك فهناك من يسبها بتشنج . . وهناك من يصفق لها بجنون . . وهذا دليل على إصابة شعب بأكمله بحالة انفصام شديدة فى الشخصية . .

وهنا تدخل مفتاح الصاوى بحديث كله مرح وقدر كبير من خفة الدم . .

ـ على فكرة التصفيق على الفاضى والمليان أصبح عادة مصرية سيئة ؛ لأنه لا يوجد ما يدعو إليه . . لا شىء حولنا يثير الفرحة ، وبالتالى يجبرنا على التصفيق . . وعشان

نعلّم كفوفنا الأدب، أنا حاقترح فرض عقاب على أى واحد يُمْسَك متلبسًا بالتصفيق يدفع جنيه غرامة . . على الأقل نبدأ نعمل حصيلة للحزب مَن دلوقت . . إيه رأيك يا أستاذ أحمد؟ . .

ضحك أحمد منصور فى رزانة ووجد أن صديقه الجميل امتص سحابة الحزن المنعقدة فوق الرءوس بتلك الطُرفة العبقرية، فانبرى لتأييده قائلاً :

ـ إنت فكرتنى بمجلس قيادة الثورة . . لما لغوا الألقاب ومنعوا كلمة «باشا» . . وكلمة «بك» . . كان بعضهم بينسى وينادوا بعض بالألقاب دى . . فاقترح جمال عبد الناصر بنفس خفة دمك دى يا مفتاح إن اللى يغلط ويستخدم الألقاب دى يدفع غرامة قرش صاغ . . (اللى هو زى الجنيه الأيام دى) .

ضحك الحضور . . وكادوا أن يصفقوا . . فانكتم صوت التصفيق فورًا . . وحل محله نوبة من الضحك المتواصل . . لأنهم خافوا من التلبس بالتصفيق . . ودفع الغرامة، وعندما هدأت الصالة . . كان الهدوء ينطق بما معناه «نعود إلى الجد . . أكمل يا أستاذ . . » .

فأكمل أحمد منصور :

ـ أقول : إننا نطالب بتعديل الاتفاقية بما يؤكد استمرارها وإلى حسن نيتنا فى العمل بها . . وترسيخها مدى الحياة وذلك بالآتى :

ـ المطالبة بسحب قوات الطوارئ من المنطقة العازلة بين الحدود .

ـ السماح لإسرائيل ببناء جدار عازل على طول الحدود بينها وبين مصر . . حدود ١٩٦٧ . .

ـ عمل نقطة اتصال برية واحدة بين الطرفين كبوابة دخول ونقطة جمارك للتبادل التجارى . .

– إلغاء أى بنود تتعلق بتحديد القوات وعدد السكان والنشاطات المدنية فى صحراء سيناء . .

– توجيه التكاليف المالية الخاصة بقوات الطوارئ إلى بناء الجدار العازل .

- إطلاق حرية دخول أبناء الشعبين للعمل والتجارة والسياحة . .

هذا فيما يتعلق بتعديل الاتفاقية . . أما فيما يتعلق بتوظيف هذا التعديل لصالح مصر . . فهو الهدف الكامن خلف هذا التعديل . . إذ يجب أن تتحول سيناء إلى دلتا أخرى . . دلتا تتمثل فيها كافة المحافظات ؛ حيث تقوم كل محافظة بترحيل جزء من سكانها الشباب فى مساحات معروفة تخصص مسبقًا لكل محافظة . . لإحداث تنافس يسمح فيه للمحافظين بعقد اتفاقيات عالمية مع الشركات العملاقة للعمل بنظام الـ .. P.O.T تقديم الخبرة ورأس المال وتوظيف الأيدى والعقول المصرية مقابل الحصول على الأرباح لمدة خمسة وعشرين عامًا . .

نحن نصبوا إلى إنشاء دولة حديثة بكل مقومات الدولة داخل هذا المثلث الفقيد . . وزرع ميناء عملاق على كل ضلع من أضلاعه . . شمالاً على البحر الأبيض جنوبًا عند الرأس المذبب بالبحر الأحمر . . وغربًا عند منتصف طول قناة السويس . .

ليتذكر أى منكم مقومات أى دولة خليجية منذ خمسين عامًا . . مثل الكويت . . أو قطر . . أو الإمارات . . ولننظر إلى ما جنوه من ثمار التنمية الطليقة . . ستقولون : إنه البترول . . وأنا أيضا أؤكد أنه البترول . . وهل سيناء خالية من البترول؟ . . سنجعل بترول سيناء لتنمية سيناء . . ولتتسابق الشركات فى إخراجه لنا ولهم بالحصة المتفق عليها . .

وأشعل أحمد منصور سيجارة وهو يتأمل وجوه الحضور وهز رأسه شاكرًا للدكتورة راوية عبد العظيم التى تجلس بجواره عندما حرّكت بيدها منفضة السجائر قرب سيجارته فى لمسة لطيفة . . وراح يتحدث بعيدًا عن أوراقه :

ـ أريد أن أقول إن روح هذا الحزب تنبع بالدرجة الأولى من روح مصر الفرعونية . . وإننا نصبوا إلى إعادة هذه الروح إلى أجسادنا الميتة . . الفراعنة لم يسجل التاريخ ضدهم أنهم اعتدوا على الجيران . . ولكنهم صدوا العدوان الواقع عليهم . . وسيناء نفسها تشهد بذلك . . وفكرة الجدار العازل راودتنى عندما اكتشفت إلى أى حد ما زالت الذائقة اليهودية كما هى لم ولن تتغير منذ خلقهم الله . . فرغم تقدمهم التكنولوجى . . وآلاتهم العسكرية الجبارة . . وذراعهم الذى صار أطول مما يجب . .

إلا أن الخوف ما زال يتملكهم داخل أراضيهم بل وداخل بيوتهم . . وإذا كانت قريحة شارون الشرسة التى تلهمه ابتكاراته فى القتل والتدمير وحرق الزرع والنسل هى نفسها التى ألهمته بالاحتماء فى جدار من الخرسانة راح يرفعه بمقدار ارتفاع حجر صغير يُلقيه طفل فلسطينى عليهم، فإن هذه القريحة الجهنمية ما زالت تبحث عن الأمن رغم جبروتها . . فهل له أن يأمن جانب مصر برفع مثل هذا الجدار بين حدودنا وحدوده؟ . .

نحن بهذه الفكرة لا نعزل مصر ولكنا نمنح جيراننا مزيداً من الأمان والثقة . . الطائرات لا تكسب أرضًا . . الدبابات هى التى تكسبها . . والمصريون عندما أزاحوا خط بارليف بأقدامهم . . إنما فعلوا الحل الصحيح فى ركل بابهم للدخول إلى منازلهم . . إذ إننا لم نتعود على ركل أبواب الآخرين واقتحام منازلهم . . تلك هى الذائقة المصرية والروح المصرية التى كانت تستعد للمحاسبة فى الآخرة بحفظ وتلاوة هذا القسم : أقسم أننى لم أؤذ إنسانًا . . ولم أقتل حيوانًا . . ولم أعطش زرعًا . . أليست تلك هى الحضارة الحديثة . . الحضارة التى تحمى القطط والكلاب فى أوروبا وأمريكا . . حضارة تقدم لمسات إنسانية فى مواجهة القطط والكلاب تقابلها وحشية بربرية فى مواجهة الإنسان . . الإنسان فى أفغانستان . . وفلسطين . . والعراق . . لقد سجلت حضارتنا ما هو أفضل . . ولذا فقد ورثنا ما هو أفضل . . ونحن نتعامل حاليًا بهذا الموروث . .

هذا من ناحية :

الناحية الأخرى الهامة . . هى نوع الفكر الذى يقدمه الحزب . . ما أكثر الأفكار الموجودة على الساحة ! . . أفكار مختلفة تأخذ عناوين مختلفة تحت مسميات أيديولوجية مختلفة . . ولكنها فى النهاية تصب فى القالب البرىء الذى ينتهى إلى الأخذ بمصلحة البلد . . ولكن العيب الذى يلمسه المرء فى هذه الاختلافات هو التناحر ورفض البعض لما يعلنه البعض الآخر . . بل وتسفيه موقفه وموقعه . . فهناك من يستمد روحه من الفكر اليسارى . . أو الأصولى . . أو الناصرى . . وهناك من بحث عن عنوان مخالف : التقدمى . . وكلهم يحشرون كلمة (العربى) فى عناوينهم . . حتى لا يطالهم النقد من أنهم ليسوا (وحدويين) أو (قوميين) . . ونحن لن نتمسح فى كل هذه المسميات، بل جئنا لنذكّر الجميع بأننا (مصريون) . . إيجبت . . القبط . . ولذا فاسم

حزبنا يبدأ بكلمة (مصر . .) . . ثم (الأم) أى السيدة الرءوم الحاضنة لكل هؤلاء الأبناء على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، والدليل على ذلك هو هذا الاجتماع المنعقد حاليًا والذى لم يتم التحضير له بالشكل الذى كان يضمن هذا النجاح فى الحضور . . لقد سارعتم إلى مكتبى لمجرد أن أشار لكم صديقى مفتاح الصاوى إلى باب يحمل كلمة مصر . لو قال لكم اسمًا آخر ما كنتم حضرتم . . ولعل كمية الكرامة التى حملها مفتاح دفاعًا عن مصر عندما اقترح الشيخ صلاح السقا أن تنال نصيبها من زكاة مال العرب كانت هى الدافع الحقيقى . . . . . .

ـ لا مؤاخذة يا شيخ صلاح . .

كان الشيخ صلاح السقا إمام المسجد جالسًا بين الحضور . . وهذا ما لم أكن أعرفه . . ولما رفع الشيخ صلاح يده طالبًا الكلمة أشار له أحمد منصور براحة يده اليمنى فى احترام : أن . . تفضل . . فانبرى الشيخ صلاح فى تقديم ما لديه وهو واقف فى نفس مكانه . .

ـ «لعلك تعلم يا سيدى أن أخاك الفقير إلى الله لا يخشى فى الحق لومة لائم . . ووجودى هنا بينكم يدل على ذلك . . فأنا تعاملت مع نفسى فى هذا الحضور كمواطن مصرى وليس كموظف فى وزارة الأوقاف يمكن أن يطاله العقاب الوظيفى الغبى مقابل مثل هذا التعامل مع النفس . . ولكنى كنت صادقًا مع نفسى عندما تحركت إليكم مع هذه الجموع الصادقة . . لقد أعجبنى هذا التشخيص الذى قدمته لنا أنت والفنان مفتاح الصاوى . . تشخيصكم لمرض راح يلم بالشعب المصرى . . الشعب الذى لم يعثر على الحد الفاصل بين الشعور بالسخط والشعور بالرضا؛ ولذا فهو يصفق حينًا ويلطم أحيانًا . . وذلك لغياب فضيلة الصدق فى كل ما يمر بحياته . . وما نمر به الليلة هو بداية العثور على الشىء المفقود الذى اسمه الصدق . . ولذا فقد جئت وفى نيتى المشاركة والانخراط فى هذا الحزب، كما أن فى نيتى الاعتذار عما بدر منى بالأمس من رأى لا يحمل إلا الشطط والهوان . . الرأى الذى جرؤت فيه أن أؤجر ثدى مصر الحرة مقابل أن أدفع عنها الجوع . . ووجدت الآن أنه من الأفضل لها أن تجوع . . الجوع الذى تدربنا عليه حتى اعتدناه . .

واسمح لى يا أستاذ منصور أن أعلق على برنامج الحزب حول علاقتنا بإسرائيل . . فمن المعروف أن دلتا مصر كانت وما زالت الفخ المنصوب لأى معتد على أرض الكنانة . . فكلهم يتحاشون التورط فى إدارة معاركهم على أرضها ، فأرضها المنبسطة الكاشفة ، وما عليها من شبكة معقدة من الطرق والترع والمصارف والسكك الحديدية والجسور تجعلهم أسرى بين أيدينا قبل أن يديروا ضدنا حربهم إذا حاربوا . . ودلتاك الجديدة فى سيناء ليست سوى فخ جديد ، على مقربة منهم ، هذا لمن يُحسن قراءة فكرتكم بعيدة النظر ، ناهيك عما بها من سماح بالتبادل التجارى عبر بوابة وحيدة بالجدار العازل . . إنه العمل بالمثل المصرى الحكيم (اللى تخاف منه خليه فى حضنك) . . ولهذا فأنا أرى أن الصهاينة بما لديهم من لؤم شديد وتمرس تاريخى فى التآمر لن يقبلوا هذا التعديل . . » .

ثم أنهى الشيخ صلاح كلمته وجلس فى هدوء وهو ينال كلمات الاستحسان بدلاً من التصفيق الذى تمكن الحضور من الوفاء باتفاق المؤتمر على اجتنابه . .

شكره أحمد منصور وأحاطه علمًا أن : «مصر التى استطاعت بكفاءة عدد محدود من أبنائها العباقرة فى كسب معركة التحكيم الدولى فى قضية طابا سيمكنها تجنيد العالم الحر فى مناصرتها للحصول على استرداد حقيقى ودائم وآمن وغير مهدد لأرض سيناء بطرح هذا المشروع الذى يحمل كل بند فيه مصلحة لكل طرف من طرفى التعامل . . الأمان الحقيقى والنهائى لإسرائيل عند حدودها مع مصر . . وضم سيناء كأرض مصرية إلى باقى الأراضى المصرية ضمًا كاملاً غير منقوص يسرى عليها كل ما يسرى على أرض الوطن من حرية واستقلال لا تقيده بنود أو لوائح أو قوات طوارئ . .

وباختصار يا سادة نحن أمام بركة من المياه الراكدة التى تزداد عفونتها يومًا بعد يوم . . وإلقاء حجر واحد فى هذه البركة هو البداية . . أما تحريك المياه لطرد عفونتها ومن ثم إيجاد مخرج لها فهو الأمل المنشود . . الأمل الذى يبدأ تحقيقه بإلقاء حجر ما . . هذا ما نحاول أن نفعله . . » .

ولأن برنامج العلاقات الخارجية مع مختلف دول العالم استولى على الجلسة ، ولأن

البرنامج بدأ بالحديث عن علاقتنا بإسرائيل فإن سخونة الموضوع ألهب حماس القلوب رغم أن فكرة الإيمان بالأمر الواقع لم تنزل بالبرد والسلام الكافيين على كل القلوب . . التى كانت تتميز غيظًا وهى ترى أن وجود إسرائيل أصبح أمرًا مسلمًا به . . وأصبح الانتقال بالحديث إلى برنامج الحزب وعلاقته مع باقى دول العالم لا يعدو أن يكون نوعًا من تحصيل الحاصل . . فالأمر لا يحتاج إلى برنامج ، فمصر المنفتحة بحب على العالم ستظل كذلك وزيادة ، خاصة عند تفعيل دور السفراء وأطقمهم من الدبلوماسيين بالتخلى عن الأدوار الروتينية التى يؤدونها بحماس فاتر تغلب عليه المصالح الشخصية بدلاً من أن يكون حماسهم منصبًا على تعلية اسم مصر وتعزيز مكان ومكانة أبنائها فى الخارج . .

هتف واحد من الصفوف الأخيرة :

ـ السودان؟ . . شقيق اليوم سيتحول بفعل التآمر إلى عدو الغد وبعد الغد . . احذروا نسيانه . .

ساندە هاتف آخر :

ـ سيفتحون لنا كتاب المياه . .

وهتف الشيخ صلاح :

ـ يجب أن نتصافح من الآن على حافة البئر ونتفق على الشراب الهنىء . . ولا ندع الفرصة للمجرمين أن يسمموا مياهنا بعد أن سمموا حياتنا . .

وانبرى رجل سقيم فى آخر القاعة فاعتلى كرسيًا حتى يراه الجميع وراح ينادى بصوت عالٍ خرج من فم ممصوص وأسنان متكسرة . .

– الذين سمموا حياتنا ليسوا بعيدين عنا . . إنهم هنا بيننا . . يهنؤون بالحياة ونحن نرسف فى الذل . . من يصدق أننى من أبطال حرب أكتوبر؟ . . لقد أصبحت أكره الاحتفال بذكرى هذا اليوم . . لأن ما أتذكره دائمًا هو أن منزلى خال من الطعام . . وجيوبى خالية من النقود . . وأعيش بلا عمل بعد أن أحالونى على المعاش الاختيارى منذ سنوات . . وضاعت المكافأة كما ضاعت الوظيفة فى شربة ماء . . منهم لله . . منهم

لله . . ثم استوى على مقعده وهو ما زال يردد كلمته الأخيرة إلى أن ران صمت حزين على القاعة . .

عمدت الدكتورة راوية إلى الميكروفون وراحت تتحدث بهدوء :

ـ ليس صدفة أننا نجتمع هنا لنؤسس حزبًا . . حزبًا يحمل آمالكم ويخفف آلامكم . . آمالكم التى هى آمال مصر . . وآلامكم التى هى آلام مصر أيضًا . . وفى ظنى أننا لو فتحنا الباب لاستقبال كل الشكاوى والعذابات الشخصية لما انتهينا إلى نهاية . . أنا مقتنعة بأن كل واحد (فيه اللى مكفيّه) . . كفاية انك بتنام فى حضن مشاكلك الشخصية وآخر حاجة بتشوفها هى تدمير العراق بشكل لحظى فى الفضائيات . . بتشوف مهزلة عصرية جديدة . . مهزلة سرقة شعب بأكمله . . دولة بحالها بتتسرق قدامنا واحنا واقفين نتفرج . . فلسطين انسرقت خلاص كل اللى بنحاول فيه انهم يسيبولنا حته مسروقة نعيش فيها . . بنتحايل عليهم علشان يسيبوا حته . . يقوموا يضربونا ويقولوا مفيش . . العراق فى طريقها انها تكون فلسطين تانية . . وبكره نتحايل عليهم بنفس الطريقة انهم يسيبوا للعراقيين حته يعيشوا فيها . . صحيح الأمل بيرجع تانى جوانا لما بنشوف المقاومة بتحاول وبتقدم شهداء كل يوم . . بس ما دام الأمريكان أطلقوا عليهم إرهابيين فمعنى كده انهم بيتحالفوا ضد المقاومة تحت هذا المسمى الكاذب ومش حيسيبوهم . . عارفين ليه؟ . . لأن العالم العربى فى حالة عجز كامل . . حالة . .

ثم ركنت إلى الهدوء قليلاً وعادت إلى الحديث :

ـ خلّونا فى برنامجنا . . الأستاذ أحمد منصور حيكمّل قراءة باقى البرنامج . . وبعد إعلان الحزب ـ بإذن الله ـ حنعمل لقاءات دورية نطرح فيها كل المشاكل . . العامة والخاصة . . اتفضل يا أستاذ أحمد . .

ثم قرّبت له الميكروفون بهدوء وعلامات الأسى تبدو على وجهها وعيناها تفحصان الرجل المطعون الذى فى آخر المقاعد . . بطل أكتوبر الجائع المنسى . . وكان من السهل أن نعرف أن هزات الرأس التى صدرت منها أسيانه حزينة كانت : من أجل هذا الرجل . .

* * *

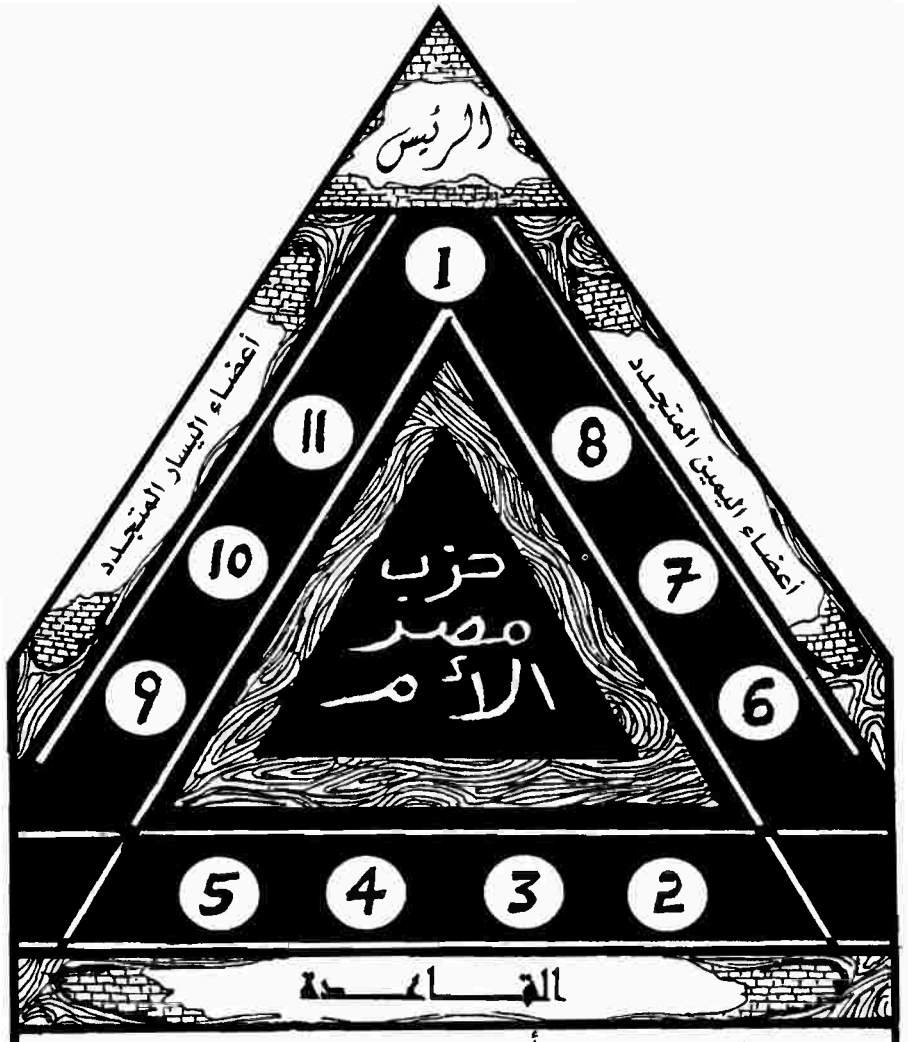

١	أحمد منصور
٢	راوية عبد العظيم
٣	مفتاح الصاوى
٤	إمام إمام الإمام
٥	چورج عزيز
٦، ٧، ٨	امرأة ، عامل ، مسيحى
٩، ١٠، ١١	مسيحى ، امرأة ، فلاح

(٤)

ورقة الدكتورة راوية

كان :

الفن التشكيلى . .

والحس التشريعى . .

والذوق السياسى . .

والروح المصرية البحتة . .

وقوة البحث عن العدالة . .

والأمل فى الوصول إلى ميزان الحق . .

كل ذلك كان هاجسنا ونحن نصل بعد جهد شاق إلى هذا التكوين البيانى المرسوم لمائدة اجتماع قاعدة الحزب ، والتى قام مفتاح الصاوى برسمها :

إنه رسم يلخص مجلسنا . . وعددنا . . وفئاتنا . . ووظائفنا . . رسم يشير لكل منا عن مكانه . . لا على مكانته . .

رسم يستوعب حضورنا نحن الخمسة . . القاعدة . . و . . الارتفاع . .

١ ـ أحمد منصور الذى عاش مؤرقًا يبحث عن حزبه فى الظلام . . ظلام الزيف والخيبة

٢ ـ راوية عبد العظيم الطبيبة التى تربى الأيتام وهى مقهورة . .

٣ ـ مفتاح الصاوى الحصان المشاكس والفنان الحر . .

٤ ـ إمام إمام الإمام ابن البلد الذى ساس قلوب الآلات دون قلوب البشر . .

٥ ـ جورج مكسيم الشاعر القبطى الذى تسكنه روح فرعون . .

جناحا المنضدة ـ الأيمن والأيسر ـ جاهزان لاستقبال ممثلى الشعب نساء وعمالاً وفلاحين : مسلمين وأقباطًا . .

الجناحان يرفرفان دومًا ، ويتغير ريشهما كل شهر فى تجدد دائم . .

هذا ما تخيلناه عن مجلس الحزب . .

الديمقراطية هى الأساس فى طرح الآراء . . والتصويت عليها يتم بمنتهى الشفافية . . والرأى الصائب هو الذى ينال ٦ أصوات على الأقل من أحد عشر صوتا وهم :

نصف القاعدة ٤ ÷ ٢ = ٢

+ الارتفاع (الرئيس) = ١

+ نصف مجموع الجناحين ٦ ÷ ٢ = ٣

المجموع ٦

المنضدة مثلثة كدلتا النيل . والهرم الاكبر . . ورأس السهم .

رأسها مدبب . . ينتهى إلى مقعد الرئيس . .

قاعدتها منبسطة . . تزدان بمقاعد القاعدة . .

الجناحان يطلان على الرأس والقاعدة فى جلال . .

وتساءلنا . . بصوت عال :

* هل تكون الغلبة للجناحين؟ . .

أجل . . لأن مجموع الجناحين يزيد واحدًا عن القاعدة والارتفاع . .

* هل تكون الغلبة للقاعدة؟ . .

لا يمكن إلا إذا تعززت بصوت واحد من الشعب . .

* متى تفشل القاعدة والارتفاع؟ . .

تفشل القاعدة والارتفاع إذا فقدا أصوات الجناحين بالكامل . .

* ما كيفية اختيار الجناحين؟ . .

بأسبقية التسجيل فى الحزب . .

فبأيدينا الكشوف التى تحمل أسماء النساء والأقباط والعمال والفلاحين . . ويتم الاختيار بالترتيب . . ويتم التغيير كل شهر ميلادى للجناحين . .

لقد قلنا فى مداولاتنا إن المقاعد الدائمة لا يعنى دوامها الاستقلال بالرأى . . وإنما يعنى مراقبة البناء ومعايشته ، وإن المقاعد غير الدائمة لها فعل ترسيخ رأى القاعده إذا كان صائبًا . . أو رفضه إذا كان به شطط . .

* ومقعد الرئيس هل هو المقعد الدائم كما تعوّد الناس؟ . .

هذا المقعد يستمد شرعيته بطرح الثقة فيه كل أربع سنوات . .

* ولماذا لا نهرب من فكرة الاستفتاء المعيبة التى ملها الناس؟ . .

إذن ، ليس هناك سوى اللجوء إلى الانتخاب . .

* ومن هم المرشحون؟ . .

المرشحون : على الأقل اثنان من ثلاثة أعضاء : عضو من القاعدة . . وعضو من الجناحين والرئيس الحالى . . ليصبح المتاح لهم الترشيح فى كل دورة . . ثلاثة . . ولا يُلغى الانتخاب إلا فى حالة تنازل المرشَحين للرئيس . .

* وهل يملك المجلس سلطة إزاحة الرئيس؟ . .

يعود الأمر فى ذلك إلى الجمعية العمومية التى تخول المجلس سلطة إعادة النظر فى

استمرار الرئيس من عدمه . . وللمجلس إجراء التصويت عليه بنفس الطريقة المتبعة فى التصويت على أى قرار يعرض عليه . .

لقد مارسنا لعبة الديمقراطية نحن الخمسة ونحن نضع القواعد الهامة التى يسير عليها الحزب . . والتى ستكون هى نفسها القواعد التى سنستمد منها دستور الأمة إذا وصلنا إلى الحكم . .

وكانت هناك بعض الثوابت التى لا يمكن المساس بها ؛ لأنها ملك الأمة والتاريخ والذائقة الثقافية المصرية على مر العصور . . مثل المصدر الرئيسى للتشريع وهو الدين الإسلامى ؛ لكونه حقّا يجب أن يظلل أمة أغلبها يعتنق الإسلام دينا . .

ومع هذا فقد طرح أحمد منصور هذا الأمر للتصويت عليه كتابة طالبًا منا وهو يمد يده لكل واحد بورقة تشبه باقى الأوراق نوعًا وحجمًا :

- ستصلنى غدًا آراؤكم مكتوبة على هذا الورق ، ولا يهمنى معرفة صاحب الرأى ؛ لأنكم لن تكتبوا بخطوط أيديكم ، وأنا مثلكم سأكتب رأيى على جهاز الكمبيوتر . . إننى أريد أن أدفع عن أى صاحب رأى مخالف الشعور بالحرج . . يكفى أنه كتب رأيه حتى لو لم يتمتع بالأغلبية التى سنلجأ إليها فى إقرار الرأى الذى سيؤخذ به . .

وفى اليوم التالى كانت أمامه الأوراق التى أوصانا أن نسقطها فى صندوق ما حتى تختلط ويصعب التعرف على صاحبها . .

وراح يقرأ الورقة الأولى . .

«المصدر الرئيسى للتشريع هو الدين الإسلامى الذى يكرس الاعتراف بوحدانية الله والاعتراف بملائكته ورسله وكتبه وبيوم البعث وحساب الآخرة من جنة للأطهار الأسوياء ونار للظالمين الأشرار . . ويشرّفنا ونحن نقر بهذه الثوابت أن ننفذ التعليمات الإلهية بقطع يد السارق بما يساير روح العصر ويؤكد فعالية العقاب باحتواء معناه وتغليظ العقوبة الموازية وليست البديلة ؛ لأننا لا نملك استبدال ما أمر الله به ، ولكنا نصبو إلى استعمال المعنى المقدس الذى فرضه الله لإدخال عباده فى طاعته ولتعمير الأرض . . وإن كان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب قد هداه عقله القويم وضميره

الحى أن يوقف استخدام هذا الحد فى عام حالك عزَّ فيه الرزق على الناس، فهو لم يكن يتصدى لوقف تعاليم السماء الرحيمة، ولكنه استمد من رحمة الله الواسعة رحمة مطلوبة للعباد.. وللمرء أن يرى بعين الحب والوقار إرهاصات نبيلة سرت فى قلب الخليفة النبيل وهو يستأذن ربه الرحيم فى إرجاء عقوبته حتى لا تجتمع قسوتها مع قسوة الحياة.. ولعل تلك الإرهاصات النبيلة سانده فى تألقها استخدامه لرخصة شريفة أمهرها رسولنا الكريم بقوله الشريف «أنتم أدرى بأمور دنياكم».. لن أتمسح فيما يأخذه الغرب علينا من أن عقوبة السرقة فيما لو استتب سريانها على كل سارق فسوف تنحسر الأيدى المنتجة.. ووالله ما كان منى التفات نحو هذا القول المردود عليه بقول قاطع يقول: ومتى كانت يد السارق يدًا منتجة؟.. فالإنتاج يعنى الزيادة.. والسلب يعنى النقصان.. نقصان فى مال المنتج وزيادة خبيثة فى مال السارق..

من هنا وجب القول إن إفشاء نور العدل والحق والثواب والعقاب والقصاص والإرث وحفظ الحقوق لأصحابها ونشر العدالة الاجتماعية والنهوض بزينة الأرض وسلام البشر وكل ما يحنو على الناس بالحب والخير والجمال يجب أن نستلهمه من تعاليم الله بما يحقق الغاية منها والخضوع لروحها والتسليم بنبلها ورحمتها.. والله الموفق..».

وعمد أحمد منصور إلى الورقة الثانية فسحبها وتأثّره بالحديث المكتوب فى الورقة الأولى صار باديًا على ملامحه التى كساها بعض الرضا والوقار والصمت المتأمل الآخذ فى استعادة ما قرأه توّا واستملاح صداه الطيب

وراح يقرأ الورقة الثانية..

«أرى أن الدين الإسلامى هو المصدر الرئيس للتشريع.. للأسباب الآتية:

١ ـ إننا لا نملك أى مصدر آخر خلاف هذا المصدر المقدس.

٢ ـ لا يتناقض تمسكنا بالشريعة الإسلامية مع تمسكنا بالأصالة المصرية التى نصبو إلى إحيائها وتكريس مفهومها لدى الناس، وأولهم الشعوب العربية الذين لا يفتئون يتذكرون فى بعض المواقف أننا فراعنة.

٣ ـ إن لم نتمسك بالدين الإسلامى فسوف نتهم بأننا نؤسس لدولة «علمانية» لا تعترف بالأديان، ولم تكن مصر العظيمة ذات يوم إلا الشاطئ العظيم لازدهار الوحدانية والدين منذ سرت نحو السماء همهمات إخناتون المبجلة وهو يرنو إلى الأفق البعيد باحثا عن سر الله فى الملكوت . .

٤ ـ ولأن الدين الإسلامى يحترم ويبجل كافة الأديان السماوية فإن انعقاده ـ كراية ظليلة فوق الهامات التى تؤمن بالله على أرض وادى النيل ـ يذكرنا دومًا بالحرية التى ينعم بها الناس منذ ولادتهم وعلى اختلاف مللهم بتلك الحرية التى منحها الله لعباده والتى لا يفقدها من يفقدها إلا بفعل ثلة من الأشرار أو حاكم جبار . . هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى قوله تعالى . . «لكم دينكم . . ولى دين . . » . .

٥ ـ من هنا فإن ما ينعم به المسلم على أرض مصر هو نفس ما ينعم به المسيحى ، ولو كان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب قد صلى داخل الكنيسة ولم ينتقل خطوات قليلة ليؤدى صلاته خارجها لضاع الخط الفاصل بين خصوصية العبادة تلك التى حافظ عليها عمر . . ولعل هذه الخطوات القليلة تشير لنا إلى عدم تعاظم الهوة بيننا . . أو لعل الهوة بيننا لا تعدو أن تكون هى تلك الخطوات القليلة . . إذن، فالمسجد والكنيسة متقاربان إلى الحد الذى يتيح لنا أن تنعم رءوسنا بالظل الظليل لشجرة السماء . . » .

تنهد أحمد منصور . . وقد راحت عيناه تلمعان ببريق الإعجاب والسكينة . .

ـ الله . . الله . . لو جاءت الورقة الثالثة بمثل ما جاءت به الورقتان السابقتان لانتهينا إلى رأى فى هذه النقطة . . لحصولنا على الأغلبية مع احترامنا لما يكون قد جاء فى باقى الأوراق . .

ضحك مفتاح الصاوى ضحكته الجذلى وهو يقول :

ـ أنت الآن تطبق قوانين الكرة فى ضربات الجزاء الترجيحية . .

وقالت الدكتورة راوية :

ـ ومع هذا . . لا مانع من الاطلاع على كل الآراء فقد نعثر على حالة إجماع تاريخية .

وقلت أنا :

ـ أنا أؤيد الدكتورة راوية . .

لقد كان من السهل حينئذ أن يفهم الباقون أننى والدكتورة راوية فى انتظار أن تقرأ ورقتان . . ولقد كان من السهل أيضًا أن يُفهم من ذلك أن ما جاء بالورقة الأولى والورقة الثانية هو ما كتبه اثنان من ثلاثة . . أحمد منصور ومفتاح . . أو أحمد منصور وإمام . . أو مفتاح وإمام . . ولأن الأسلوب الرصين الذى جاء فى الورقتين لا يمكن أن يرقى إليه أسلوب إمام فإن واقع الحال يقول إن ما سمعناه هو الرأى القاطع لأحمد منصور ومفتاح الصاوى فى هذا الأمر . .

مد أحمد منصور يده فالتقط الورقة الثالثة وراح يفردها بهدوء . .

ـ الدين مهم للإنسان ؛ لأنه يحدد العلاقة بين الإنسان وربه . . وعلاقة الإنسان مع الإنسان الآخر . . والدين مكانه القلب . . كما أن الدين هو المعاملة . . ولقد رأيت بعض الشيوخ المنافقين يواظبون على الصلاة ونصيحة الناس ويقومون بمخالفات فظيعة «يندا» لها الجبين . . (على فكره يندى بالياء وليست بالألف . . هكذا قال أحمد منصور وهو يخرج عن النص) وفى نفس الوقت رأيت خواجات يعطون لكل شىء حقه، ولكل إنسان حقه، ولا يتكلمون عن الدين ليلاً ونهارًا وكنت أظنهم لا يُصلّون إلى أن اكتشفت أنهم يقومون بعبادة الله قبل كل طعام وقبل النوم بدعاء يحفظونه ويعلمونه لأولادهم . . ولقد فهمت منهم أن سر تقدمهم أنهم فصلوا الدين عن السياسة . .

وما دمنا نريد التقدم فلماذا لا نفعل مثلهم؟ . . لماذا لا نبعد الدين عن تجار السياسة ونجعله فى مكانه المحترم ومكانته اللائقة؟ . .

فالبيت المحترم المتدين سيقدم للمجتمع والناس شخصًا محترمًا متدينًا يتقى الله فى عمله ويحافظ على حقوق الدولة وحقوق الناس . .

لقد عرفت من والدى أن الإنجليز زمان كانوا يفرحون عندما يسهر المصريون فى الموالد ولا يسهرون فى المصانع . . والقصد من ذلك أن يقوم الإنجليز بتصريف وبيع إنتاجهم لنا . . لأننا طبعا لا ننتج مثلهم . . ولأنهم غير مشغولين مثلنا بالموالد وحلقات الذكر . .

فى رأيى يجب أن نبحث عن حل مناسب لهذا الموضوع ولا ننخدع فى المظاهر . . ، ونركز على جوهر الدين الذى يدعو إلى التقدم حيث إن الرسول الكريم «يحسنا» على طلب العلم ولو فى الصين . . (وعلى فكرة يا عم إمام يحثنا بالثاء وليست بالسين . . [هو يعنى الواد بتاع الكمبيوتر مش عارف يصلحها من نفسه؟] . .) .

علت ضحكاتنا التى احمر لها وجه إمام الطيب الهادئ . . وحتى يرفع منصور عنه الحرج بادره قائلاً :

- «إنت كشفت عن نفسك يا طيب . . ليس بأسلوبك ولكن بالأخبار التى قلتها عن الخواجات ووالدك ؛ وعلى كل حال أنت أثرت موضوع مهم اختلفت عليه دول وأزمان ، وهناك عباقرة أفذاذ بيحملوا رأيك ده . . وأعتقد أنه لو العباقرة دول ازدادوا واحدًا فهو الأسطى إمام . . » .

انبرى إمام فيمم وجهه المحتقن نحونا وهو يسحب صوته الذى تحشرج فعاجله بنحنحة خفيفة . .

ـ متآخذونيش أنا كتابتى على قدى . . وجايز مش قادر أوصّل معلوماتى (وبعد فترة صمت) . . إذا كان فيه معلومات أصلاً . . لكن أنا حزين على اللى شفته بره . . واللى باشوفه هنا . . العجيب اللى شفته ماكانش فى أمريكا ولا فى أوروبا . . لأ . . دا كان فى دولة مستعمرة . . جنوب أفريقيا . . ومن ناس مستعمرين . . يعنى مستغلين . . ومن ٢٥ سنة . . وما عدا مظاهر التفرقة والعنصرية كنت باتعجب من نظامهم فى العمل والدقة والإخلاص والنظافة . . طيب ما هو الدين بتاعنا بيطلب مننا كل الحاجات دى . . والكذب!! . . إلا موضوع الكذب ده . . أكبر جريمة عندهم . . للأسف احنا عندنا ناس قدام المحاكم جاهزين يدخلوا المحكمة ويقفوا قدام القاضى علشان يشهدوا شهادة زور بالإيجار . . طبعًا دول ناس غلابة مش لاقيين ياكلوا بيبيعوا ضميرهم بتمن الأكل . . والواحد مبسوط من الكلام اللى مكتوب فى الورقة الأولى أن عمر بن الخطاب أوقف حد السرقة فى العام الحالك . . اللى هو طبعًا عام الرمادة . . علشان الجوع أسوأ مصيبة يمر بيها الإنسان . . وأسوأ جريمة تقع فيها دولة أو نظام . . والحاكم اللى شعبه يجوع مايستاهلش يقعد على كرسى الحكم دا ان ماكانش يستاهل حبل المشنقة . .

(وعندما وجد إمام نفسه يستطرد مستهلكًا وقت المجلس انتبه إلى ذلك وهو آخذ فى إشعال سيجارته التى دسها فى طرف مبسمه المذهب الرقيق) . .

ـ على كل حال . . شوفوا حل . . الدين مهم . . وأمور الدنيا مهمة . . تجمعوا ازاى بين الدين والدنيا؟ . . إنتم أساتذة كبار وناس مثقفين و . .

قاطعه أحمد منصور : رأيك وصل يا سيد إمام . . على فكرة . . أنا محتار تحب أناديك بإيه؟ . . المعلم إمام؟ . . ولاّ الأسطى إمام؟ . . ولاّ السيد إمام . .

ضحك إمام ضحكة رزينة :

ـ هو لازم ألقاب يعنى؟ . . « إمام » كفاية . . وإذا كان ولا بد : «المعلم إمام» بتعجبنى . . خصوصًا لما عرفت ان عثمان أحمد عثمان اختار لنفسه اللقب ده . . المعلم عثمان . .

باغته أحمد منصور مقاطعًا :

ـ ماشى يا معلم . . إنت تؤمر يا معلم . .

تبادلنا الضحكات بفرح عندما لاحظنا أن إمام الطيب زال عنه الحرج . . ومع خفوت الضحكات كان أحمد منصور يمد يده ليسحب الورقة الرابعة . . ويقرأ :

«لم يكن الدين عائقًا فى يوم ما فى طريق تقدم البشرية ، وطالما أعجبنى تشبيه الشيخ الشعراوى ـ رحمه الله ـ من أن الله خلق الإنسان وأنزل معه كتابه الذى يصونه . . ولكى يقرّب ذلك لملايين العامة الذين يعتدلون أمام جهاز التلفزيون لسماعه ذكّرهم بما يحدث معهم عندما يبتاعون جهازًا كالتليفزيون أو الفيديو أو يشترون سيارة من صُنع شركة ما . . فإنهم يحصلون من الصانع على كتالوج يوضح كيفية إدارة وصيانة وتشغيل هذا الجهاز أو تلك السيارة . . وهو بذلك يريد التأكيد على أن الكتب السماوية من قرآن وإنجيل وتوراة إنما أنزلها الله ـ عزّ وجل ـ لحفظ صنعته فى خلقه . . ولا يملك المخلوق تقويم نفسه بعيدًا عن تعاليم الخالق . . وكم من قوانين أرضية راحت تتآكل ويعلوها البوار كلما تقدم بها الزمن وانتهت صلاحيتها فركن أصحابها إلى تغييرها . . وكم من قوانين ثبت أنها تخدم بعض الناس على حساب البعض الآخر . . ولكن لأن الناس

سواسية أمام الله كأسنان المشط فإن رحمته ـ جلت قدرته ـ ظللتهم وهم فى رحم الغيب، أما قوانين البشر فقد عذبتهم وهم فى سعير الحياة . . فاختر لى قانونًا يمتد مداه حتى يصل إلى أفق الدين . . واختر لى قانونا ينبع منطوقه القويم من نبع الدين تجدنى قد أسلمت لك قيادى وطهّرت لك قلبى ومنحتك وجدانى شهيًا على مذبح الرب . . » .

كانت ابتسامة أحمد منصور التى تبادلها مع مفتاح الصاوى تعنى أنهما قد فهما أن هذا أسلوبى وأن ورقتى شاعرية النص وهائمة البيان كانت تشير إلى شخصى أنا المسيحى الوحيد الذى يمثل خُمس المجلس . . والذى لم ينكر إعجابه بالشيخ الشعراوى . . واحترامه لكل الأديان، وأن موافقتى على هذا الأمر جاءت ضمنًا حتى لو غلّفها التلميح . .

لم يشأ أحمد منصور أن يعلق على صيغة البيان، وإنما فضّل ـ كما بدا لى ـ أن يعززه بقول رقيق :

ـ تلك هى الموافقة الثالثة التى تتيح لنا الأغلبية . .

قال مفتاح الصاوى :

ـ ولكنها تفتقد إلى الصراحة . .

رد أحمد منصور :

ـ ولكنك لا تستطيع أن تضعها فى جانب الرفض الذى أظهره المعلم إمام . . شتّان بين هذا . . وذاك . .

قال مفتاح الصاوى :

ـ أرجو أن تعلقها حتى نطّلع على الورقة الأخيرة .

كنت أنا ـ على الأقل ـ من فهم أن الورقة التى سيتلوها أحمد منصور توّا هى ورقة الدكتورة راوية عبد العظيم . . والتى سارع أحمد منصور بسحبها فى شغف مما جعلنى أوقن أن شغفه ليس مرجعه ـ فقط ـ البت فى أمر الدين الإسلامى كمصدر رئيسى للتشريع . . وإنما لمزيد من التعرف والامتلاء بمذاق شخصية راوية التى يبادله وتبادله كل الاحترام والتقدير والتفاهم الطيب الذى يشير إلى وجود كثير من نقاط الالتقاء التى تجمعهما . .

تنحنح أحمد منصور ثم راح يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم..

١ ـ مفتتح: لعل أسوأ الأيام فى تاريخ مصر هو يوم ٥ يونيه ٦٧ عندما انهارت حدود مصر وبعض الدول العربية أمام اليهود فدخلوها عنوة..

وما لا يعرفه الناس أن هناك ٥ يونيه آخر أسوأ حالاً انهارت فيه فكرة الامتلاك والملْكية بمنتهى الرضا عندما استولت أمريكا على آبار البترول فى البلاد الحجازية بعقد أبدَىّ وقّعه عبد الله السليمان وزير المالية السعودى (ولويد هاملتون) مندوب أمريكا يوم ٥ يونيه ١٩٣٣ يقضى ببيع ثروة البلاد وأرضها للولايات المتحدة..

٥ يونيه المصرى حدث عندما غاب المصريون عن دينهم، وبحثوا عن غطائهم لدى السوفييت ولم يتغطوا بالدين والقرآن.. فانكشفت سوءاتهم لكل الدنيا..

أما ٥ يونيه السعودى فقد حدث عندما باع السعوديون ثرواتهم لأمريكا، ثم غطّوا نظامهم بغطاء الدين..

وهذا يدل على أن ولاة أمر المسلمين إما أن يُهملوا دينهم عمدًا أو يستخدموه لأغراضهم ـ أيضًا ـ عمدًا.. والدين منهم فى كلتا الحالين برىء..

٢ ـ وفى بحثنا المهم عن مصادرنا التشريعية فإن أول ما يتبادر إلى ذهن المرء أن ديننا الإسلامى الحنيف هو مصدرنا المقدس للتشريع وأصول الحكم، ولكن مع تطور الفكر البشرى الذى يستمد تطوره ـ ولا شك ـ من كثير من الروافد الثقافية المتصاعدة والتى يدين أغلبها لروح الدين؛ فإن اعتبار الدين الإسلامى أحد المصادر الهامة للتشريع سيفتح الباب لقبول ما تيسر لنا قبوله من مصادر حضارية أخرى يحق لنا الأخذ بما يعن لنا أخذه منها.. فاعتمادنا على أغلب القوانين التى سنّها المشرعون استنادًا لما راق لهم من مواد القانون الفرنسى شىء يتناقص مع ما هو معلن فى الدستور من أن الدين الإسلامى هو المصدر الرئيسى للتشريع.. وما دام الأمر كذلك، فلماذا لا نقر الواقع ونسجل حقيقة ما يحدث، ونفتح الباب للأخذ بكافة المصادر التى تتسق مع ما نصبو إليه من تطوير وتجديد؟..

٣ ـ وبما أن الإيمان الحق موهبة يسديها الله لعبد دون عبد آخر . . وأن السمو البشرى والترفع عن الدنايا ما هو إلا إبداع تتحلى به نفوس سوية عن نفوس أخرى تنخرط فى الرذيلة . . ولذا فإن الفرد الذى هو أساس المجتمع يجب أن يرقى بنفسه إلى ذائقة النحلة الضعيفة التى تهيم سابحة فى ملكوت الله تنتقى لنفسها من مختلف الورود والأزاهير ما تختزنه لتمجّه عسلاً مُصَفّى للناس بعد حين، فهلاّ فتحنا الباب للنحلة البشرية/ الإنسان ليجد أمامه باقات الفكر مرصوصة وأزاهير الرأى موضوعه ينتقى منها ما يعينه على الكمال؟ . . » .

وأمام هذا البيان الملىء بالصور البلاغية أخذتنى الحيرة . . إذ كنت قد ورّطت نفسى فى اعتبار أن الورقة الأولى والثانية هما لأحمد منصور ومفتاح الصاوى . . وأن ورقتى وورقة إمام انكشف أمرهما . . وأن الورقة الأخيرة هى بلا شك ورقة راوية . . ولكن أمام هذا البيان الساحر أحسست أن هذه المرتبة من اللغة لا يمكن أن تملكها راوية قياسًا بمرتبة أحمد منصور أو مفتاح الصاوى، فراوية إحدى الوافدات حديثًا على الثقافة التى لم تكن من أركان اهتماماتها قبل حادث زوجها رحمى، وأنها راحت تنهل منها بشغف فى وقت متأخر من عمرها . . وأنها لا يمكن أن تكون قد تمكنت من هذه اللغة فى تلك السنوات القليلة . . ولكن ما زاد من حيرتى هو الاعتقاد مرة أخرى بأن هذه الورقة هى ورقة راوية بسبب ما ورد فيها من خبر خطير حول بيع ولاة الأمر فى السعودية لثرواتهم للأمريكان منذ سبعين عامًا . . وأنها ما طرحت ذلك إلا لأنها تكره هؤلاء القوم، ولا تؤمن بما يعلنونه من إسلام يحكمون فى ظله البلاد . . وأنها قالت لنا ذات مرة إنهم يتحكمون ولا يحكمون . . فمن منا كان يعرف تلك المعلومة عن يوم ٥ يونيه السعودى؟ . . يوم الهزيمة المختارة التى تمتد آثارها بالخير العميم على الأسرة المالكة والاستسلام المقيم لكل الشعب السعودى . .

لا شك أن راوية منذ أن عذبوها وتسببوا فى موت زوجها وهى تحمل لهم من الكراهية ما جعلها تحتفظ فى ذاكرتها بكل ما تقرأه عن مثالبهم، ولعلها تضيف على هذه المثالب . . مثالب أخرى من صنعها زيادة فى الحنق والتشفى . .

إذن، فهى ورقة راوية . .

قلت لنفسى: لا يهم.. وليظل هذا الاختلاط نافذًا.. بل الأفضل أن يظل كذلك.. حتى تختلط الألوان وتمتزج فى لون واحد.. وحتى تجمتع كل ألوان الطيف فى لوحة واحدة.. وحتى يقال عنا حقًا ودون مبالغة إننا قد توصلنا فى أول اجتماع لنا إلى ما لم يصل إليه من سبقونا وهو أننا قد أصبحنا: «الكل فى واحد»..

لقد أنهى أحمد منصور الاجتماع.. وهو يردد:

ـ إذن، يا سادة يجب أن نضع هذا البند هكذا: «الدين الإسلامى أحد المصادر الهامة للتشريع».. وعندما تلقى موافقاتنا بهزات متتالية من رءوسنا رمق راوية بطرف خفى وكأن لسان حاله يقول:

إنك ـ والله ـ لامرأة وسطية.. والإسلام يحب الوسطية..

وعندما همّ أحمد منصور واقفًا بادرنا قائلاً:

فى الاجتماع القادم سنتحدث فى:

ـ تداول السلطة..

ـ حق الرئيس فى التجديد لنفسه أو توريث الحكم..

* * *

(٥)

ورئيسهم يعلو المكان المدبب

السفارة الأمريكية
القاهرة ـ جاردن سيتى
عاجل / هام / سرى

إلى السيد / نائب وزير الخارجية . .

. . . . . .

لقد أولينا هذا الموضوع اهتمامًا بالغًا منذ أن تحولت هواجسنا معكم إلى مخاوف فعلية ، ولم نشأ أن نتعجل الأمر ونسارع بإبلاغكم بماهية الموضوع من أفراد وأماكن إلا بعد متابعة دقيقة لتحركاتهم واجتماعاتهم . .

ويمكننا أن نطمئنكم أن ما توصلنا إليه «وتأكدنا من صحته عدة مرات ونحن ندقق ونتحرى الألفاظ بإعادة طرح تسجيلاتنا لبعض من نثق فيهم من عملائنا الضالعين فى اللغة العربية» يدعو إلى الاطمئنان . .

فكلمة القاعدة التى التقطها رجلنا تارة من المقهى أو من مكتب المحامى أو من دار الأيتام لا علاقة لها بالكلمة المشابهة التى تعنى (تنظيم القاعدة) فالمصريون كلماتهم العربية أحيانًا تحمل دلالات خاصة بهم . . فعندما يشيرون إلى عمل الأساسات الخرسانية لمنازلهم يطلقون عليها القواعد . . (foundation) ومفردها قاعدة . . ولا

علاقة لهذه الكلمة بالقاعدة التأسيسية للتنظيم الإرهابى الذى أسسه السيد/ أسامة بن لادن . .

وقد تبين لنا أن هؤلاء المجتمعين يتداولون هذه الكلمة، ولكن فى شكل نصف قاعدة . . ولقد فهمنا بصعوبة ما يصبون إليه، ووجدناهم يتداولون فكرة حالمة لتكوين حزب جديد . . له منضدة تأسيسية مثلثة الشكل . . والمؤسسون (وعددهم خمسة) يتصدر أربعة منهم الجلوس عند هذه القاعدة ورئيسهم يعلو المكان المدبب . .

ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد بما فيهم من طيبة يتناولون الأمر بنوع من السذاجة، ويحاولون تحويل أحلامهم بمجتمع ديمقراطى فاضل من دائرة الحلم إلى دائرة الواقع . .

وفى جميع الأحوال، فنحن نتعقبهم ولكنا لا نخشاهم، ومرفق مع هذا التقرير تفريغ لتسجيلات اجتماعاتهم التى راحت تتكثف هذه الأيام بعد نجاحهم فى تقديم أوراق الحزب إلى لجنة الأحزاب للموافقة عليه عملاً بنصيحة (أخوية) من وكيل النائب العام واسمه مرقص بستخاروس . .

ملحوظة: من المحيّر لنا: أنه لولا الأسماء التى تدل على الديانة لأخَذَنا الظن أنهم جميعًا من المسلمين . .

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى ج . م . ع

التوقيع : .....

(هام وسرى وعاجل)

واشنطن

مكتب وزير الخارجية

سعادة السفير . . . . . ج . م . ع

بعد التحية :

إذا كان ما عبّرت عنه حول هؤلاء الأشخاص من أنهم يمارسون أحلام اليقظة، فلا يجب أن ننساق نحن أيضًا فى هذا النوع من الأحلام ونؤمن بصحة ما يفكرون فيه من الناحية الشكلية مما يبعدنا عن تفحص الجوهر . .

المصريون خبثاء . . ولا تنس أن السادات ضحك على نيكسون وكيسنجر وجولدا مائير . . ولم تستطع كل أجهزة مخابراتنا ومخابرات إسرائيل التعرف على حقيقة استعداده لشن حرب أكتوبر . . لقد احتمى هذا الفلاح الخبيث فى مجموعة مظاهر ساذجة على حافة القناة، ومع ذلك استطاع أن يُبعد أنظارنا ـ بعيدًا جدًا ـ عن حقيقة ما يخطط له . . ويبدو أن هذا يتكرر عندك .

أعتقد أن الأمر أكبر مما تفكر فيه أنت بهذه الطريقة البريئة، ونحن محاطون بالأعداء فى كل مكان . . لقد سجلت أوراقهم بعض أحاديثهم حول نشاط المقاومة فى العراق . . ألم تلاحظ كمية السعادة التى طفحت فى حديث «إمام» واعتقاده أن صدام حسين الحقيقى ما زال بعيدًا عن متناولنا، وأنه ليس هو الرجل الذى بين أيدينا . . وأن صدام حسين هو الذى يُخطط للسنّة والشيعة على السواء لقتل أولادنا والتمثيل بجثثهم . .

أعتقد أنك بدأت تضع يدك على شبكة خطيرة . .

انتبه . .

نائب وزير الخارجية

التوقيع : . . . . . .

عاجل وهام وسرى

القاهرة ـ جاردن سيتى
السفارة الأمريكية

إلى السيد / نائب وزير الخارجية

بعد التحية :

نأسف إذا كنتم قد فهمتم من تقريرنا السابق أن مخاوفنا من هؤلاء الأشخاص قد انتهت وتبددت لمجرد استخفافنا بما يفكرون فيه . .

هم بالفعل يؤسسون لتنظيم حزب سياسى جديد هذا الذى أسموه «مصر . . الأم» ويكفى أن نفهم من دلالة هذا الاسم أن المصريين ما زالوا يبحثون عن دورهم الذى ضاع منهم بعد كامب ديفيد السادات ـ بيجن . . وأن ما سنح لهم من قيادة المنطقة فى الزمن الغابر موقف لا يتحسرون على ضياعه قدر ما يحاولون العودة إليه . . ولعل ترددهم فى الموافقة على فكرة الشرق أوسطية ليس سوى لأنهم بدءوا يشعرون أنهم سيتحولون إلى حقيقة تاريخية دائمة مفادها أنهم أصبحوا مجرد سنٍّ صغيرٍ فى ترس كبير . .

أوافقك الرأى عن مدى كفاءة المصريين العقلية التى عبّرتم عنها فى خطابكم بالخبث . . وأن هؤلاء الأفراد ـ وإن بدا من تجمعهم أنه جاء صدفة ـ يشتركون جميعًا فى شعور واحد بضرورة التنظيم للوصول إلى الإصلاح . . ولن تكون هى الصدفة وحدها هى التى جعلتهم من المثقفين ما عدا «إمام إمام» الذى يملك نوعًا من الثقافة الحياتية شديدة الخطورة . .

نشكركم على توجيهكم الذى سنعمل به ، ونضعه نصب أعيننا . .

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى ج . م . ع

التوقيع : .....

(٦)

اسْتَقْوِ بنفسك .. وليس بالآخرين ..

لم نستهلك وقتًا طويلاً فى الحصول على موافقة إجماعية على عدة موضوعات تتسم بالإثارة . .

وكان الموضوع الأول هو : الفترة التى يتولاها الرئيس فى الحكم ، وهل من الأفضل أن تكون :

أربع سنوات؟

أم خمس سنوات؟

أم ست سنوات؟

تداولنا الأمر ، ووضعنا نصب أعيننا المؤسسة الأمريكية . . وتميزها التاريخى فى تداول السلطة . . وكيف لم يتمكن بعض الرؤساء الأمريكيين من تولى الحكم أكثر من أربع سنوات ، وأن أكثرهم شعبية وبراعة لم يتمتع بمنصبه أكثر من ثمانى سنوات محسوبة بالساعة الواحدة . . ولم يكن مستساغًا أن نقارن بين حالهم وحال الملوك والرؤساء العرب الذين يتشبثون بمقاعدهم رغم أنوف شعوبهم . . فهذا النوع من المقارنة بات ممجوجًا وفاترًا ومملاً إذ لم يعد من المناسب أن تصدع رأسك بأمر بات محسومًا ومفروضًا ولا علاج له إلا بالموت . . موت الملك أو الرئيس حتى يحدث التداول القسرى أو التغيير القدرى . .

قال أحمد منصور : ليتنا نتفق أن تكون الرئاسة مدة واحدة غير قابلة للتجديد . .

بمعنى أنه لا يحق للرئيس السابق الترشح لمدة جديدة . . لا هو ولا نائبه . . مهما كانت شعبيته . . مهما كان حجم إنجازه . .

سأله مفتاح الصاوى : إذن ، فأنت تقتفى أثر النظام الأمريكى أن يتم انتخاب الرئيس ونائبه دفعة واحدة؟ . .

أجاب أحمد منصور : لا يصح أن يفرض علينا الرئيس اسم من يحل محله . . فالشعب المصرى لم ينتخب أنور السادات ، وإنما جاء ذلك بتعيين من عبد الناصر ؛ كذلك الحال مع حسنى مبارك الذى جاء أيضًا بتعيين من السادات .

والتقط أحمد منصور أنفاسه وهو يؤكد :

ـ كلمة تعيين هذه صحيحة مائة بالمائة . . فلو كان لديك نائب واحد طُرح اسمه أمام الشعب فى استفتاء . . هل تنتظر من الشعب المصرى أن يرفض اسمًا حدده رئيسه قبل أن يموت؟ . . نحن شعب عاطفى وللحزن قيمته المثلى فى نفوسنا . . بجانب أنك لا تملك حلاً آخر . . فالدستور يحاصرك . . وجموع المهللين تجتاح الشوارع طلبًا للاستقرار . . وأصبح التمحك فى الاستقرار ذريعة للاستمرار . .

قالت راوية :

ـ إذن ، فإحجام حسنى مبارك عن تحديد اسم نائبه فكرة تنطوى على نية أو مفاجأة لتغيير ما ينشده من التداول أو فى طرح أسلوب جديد . . والتخلى عن الأسلوب الموروث الذى ملّه الناس رغم نص الدستور عليه . .

قلت لهم :

ـ أنا شخصيًا لدى إحساس غريب أن هذا الفراغ المتروك عمدًا سيكون هو المخرج إذا ما حدث أى نوع من أنواع الفراغ الرئاسى . .

هتف مفتاح الصاوى ضاحكًا :

ـ الفراغ الرئاسى؟ . . هذا تعبير جديد لم نسمع به ولم يحدث فى الواقع . . ما الذى تقصده؟ . .

قلت لهم: أن يخلو مقعد الرئاسة فجأة.. بالوفاة مثلا ـ لا قدر الله ـ أو بالاعتذار لأسباب صحية.. أو بانقلاب دستورى..

وأكملت وهم ينصتون فى اهتمام واستغراب:

ـ لو حدث ذلك هل تستطيع أن تطبق الدستور.. حيث لا مجال لتطبيقه.. إذ إن نائب الرئيس المنوط به شغل مقعد الرئاسة بعد الاستفتاء ـ معروف النتيجة ـ غير موجود.. والفترة الدستورية التى يتولى فيها رئيس مجلس الشعب مقعد الرئاسة لحين تسمية الرئيس الجديد لن تكفى لاختيار من يتولى الرئاسة.. هنا لا بد أن تُجمع الآراء وتجتمع حول عمل انتخاب شعبى يحدث فى مصر ولأول مرة وهو أن يتولى كل حزب من الأحزاب طرح اسم ما من رجاله لينافس على مقعد الرئاسة..

ووجدت نفسى ألتزم الصمت لبضع ثوان حتى أرتب كلماتى القادمة لما بها من غرابة أحس مقدمًا أنها ستعصف بعقولهم فتساءلت أولاً:

ـ أليس حسنى مبارك هذا رجلاً ريفيًا مسلمًا يؤمن بالقدر؟..

قالوا: بلى..

قلت: أليس هاجس الموت والتفكير فيه كزائر ينقض على المرء فيخطفه من بين ذويه فى أى لحظة.. شيئًا يشغل دومًا أغلب المصريين؟..

قالوا: بلى..

أكملت وأنا أحاول التماسك:

ـ فى ظنى أن الرئيس ترك مقعد النائب شاغرًا لسبب فى نفسه وغالبًا هو السبب المتعلق بما قلته الآن عن الموت، إذ ربما قال لنفسه: «إذا كان جمال عبد الناصر قد سمّى الرئيس الذى يخلفه.. وهو السادات.. وإذا كان السادات قد سمّى هو الآخر الرئيس الذى يخلفه وهو أنا.. فلماذا لا أغيّر هذا النمط وأمنح للشعب فرصة قسرية ليسمى بنفسه رئيسه ولأول مرة؟!..».

قال إمام إمام :

ـ تقصد أن هذه الفرصة لن ينالها الناس إلا بعد رحيله . .

ـ الواقع أن هذه الفرصة . . يجب أن يعطيها الرئيس للناس من الآن ، ولن يحسوا بقيمتها إلا إذا حدث ما يفكر فيه وخلا مقعد الحكم برحيله . .

قالت الدكتورة راوية :

ـ ومن أدراك أنها فرصة لعمل انتخابات شعبية صريحة؟ . . ألا يمكن أن تتحول هذه الفرصة إلى بداية للتناحر والصراع الذى إذا اشتد سيتحول إلى حرب أهلية؟ . .

أوقفها أحمد منصور عن الحديث رافعًا راحته اليمنى فى الهواء على شكل احتجاج :

ـ معذرة يا دكتورة . . مصر هى البلد الوحيد فى التاريخ الذى لم ولن تقع فيه حرب أهلية . . تاريخ مصر منذ فجر البشرية لا يحمل هذا الخبر . . المصريون توحدوا واصطفوا ضد الفيضان . . وتوحدوا واصطفوا ضد الغزاة . . ولم يصطفوا طوال تاريخهم ضد بعضهم البعض . . ولكنى أستطيع أن أفهم من حديث جورج شيئًا جديدًا ربما ساعدنى هو على اكتشافه لأول مرة . . من الممكن فعلاً أن هذا الفراغ المقصود كان نواة للتفكير فى توجيه الشعب والأحزاب أن يملئوا هذا الفراغ بتضافر لا بد أن يأخذوا به لتسمية رئيسهم بأنفسهم . . إذا ما رحل رئيسهم فجأة . . ولكن يبدّو أن ما يفكر فيه المرء شىء ربما يختلف عن تصاريف القدر . . وأنا واثق أن الرئيس نفسه لم يكن فى ظنه أنه سيعتلى مقعد الحكم طوال هذه المدة ، وأن يكبر ولده الأصغر حتى يُطرح اسمه كخليفة له تشبهًا بما حدث فى سوريا وهى جمهورية . . والمغرب والأردن وهما مملكتان . .

قال إمام مقاطعًا :

ـ لا تنس أن الرئيس نفى مسألة الخلافة هذه ، واعتبرها نوعًا من تخريف العامة . .

رد عليه أحمد منصور قائلاً :

ـ الرئيس فعلاً يعنى ما يقوله فى هذا الجانب ، ولكن إذا حلّلت ما نطرحه الآن

وقارنته بما حدث فى الواقع من تمكين جمال مبارك من مقعد فى الحزب شاهق الارتفاع لا بد أن تتوقع أن اسم جمال سيكون هو المرشح عن الحزب الوطنى فى مواجهة أسماء أخرى من باقى الأحزاب . . والباقى معروف . .

تساءل مفتاح الصاوى :

ـ نفهم من هذا أننا بصدد الدخول فى تجربة جديدة . . تجربة سيتولى الرئيس إدارتها إذا أعلن عزوفه عن الاستمرار فى الرئاسة وعدم الحصول على مدة رئاسية جديدة . . وهذه التجربة ببساطة سيكون ظاهرها الديمقراطية تمشيًا مع هذا النداء المتعالى الذى تتولاه أمريكا . . وسيكون باطنها هو تأمين مقعد الرئاسة لمرشح الحزب الوطنى الذى سيواجه عددًا من مرشحى الأحزاب الباهتة الأخرى . . والباقى ـ كما قال أحمد منصور ـ . . معروف . .

قالت راوية متسائلة بنوع من التخابث . .

ـ ومن أدراك؟ . . فربما يرشح الحزب الوطنى اسمًا آخر . . ولن يُطرح اسم جمال مبارك بالتحديد . .

قال مفتاح الصاوى :

ـ سيحدث ذلك فعلاً . . ولكن فى شكل تمثيلية . . إلى أن تهب الجموع الرافضة لطرح اسم جمال وسيستجيب المرشح الجديد ويتقدم للترشيح نزولاً على رغبة الشعب . . وأغلب الظن أن هذه التمثيلية ستدار من قاعة مجلس الشعب وسيتولاها كل المستفيدين من النظام . . وما أكثرهم ! . .

تساءلت أمامهم :

ـ والجيش؟ . .

قال أحمد منصور : سيقف على الحياد . . طالما أن الأمور تسير فى صالح المؤسسة القديمة . .

تساءلت مرة أخرى :

ـ وإذا لم تستجب الأحزاب لهذه التمثيلية؟ . . ورفضت المشاركة فيها أو حاولت تعطيلها . .

قال أحمد منصور :

- من المحتمل جدًا أن يحدث هذا . . فهم يعلمون مقدمًا الدور الذى ستلعبه الداخلية . . والخارجية . . والإعلام . . وسائر المؤسسات والشركات ورجال الأعمال والنخبة المستفيدة من الوضع القائم . . وكل هذه معوقات جاهزة مقدمًا فى طريق الأحزاب الباهتة كما أسماها مفتاح . .

قلت لهم : لا تنسوا أن فى مصر الآن لجنة لحقوق الإنسان ، ومن الممكن أن ترفع الأحزاب صوتها لهذه اللجنة مطالبة بوضع الانتخابات تحت إشراف دولى . .

قال أحمد منصور : لا أعتقد أن هذا الأمر من مهام تلك اللجنة ، فهى تعتنى بالدرجة الأولى برفع القهر عن المقهورين إذا اشتكوا . . وثق أنها ستكون شكلية الأداء روتينية الجوهر فى بادئ الأمر إلى أن تتمتع بديمقراطية الغربيين . . وهذه الأمنية يحتاج تحقيقها إلى وقت طويل . .

تحول مفتاح الصاوى بالحديث إلى وجهة أخرى متسائلاً :

ـ يا أخى أنا أتعجب . . قانون الحكومة يمنع الموظف من التعامل مع أقاربه حتى الدرجة الرابعة فى مجال وظيفته . . يعنى ممنوع دخولهم فى مناقصات تعلنها دائرته أو منافسات للحصول على وظائف . . ألا يطبق هذا فى حالة أعلى وظيفة فى التاريخ؟ . . وظيفة رئيس الجمهورية؟ . .

قالت الدكتورة راوية :

ـ لقد تم اختراق هذا القانون بنوع من العُرف الذى طغى على قوة القانون نفسه . . انظر لعمداء الكليات الذين يحجزون مقاعد وظيفة المعيد لأبنائهم منذ دخولهم الكلية . . بل يطيحون بأصحاب الحق من المتفوقين حتى لا يشغلوا هذه المقاعد . . وامتد الأمر إلى القضاء والنيابات والشرطة ، حتى لقد أصبحت الأولوية ـ رسميًا ـ فى النيابات لأبناء وأقارب كبار رجال القضاء . .

لم نكن ندرى : إلى أين سيمتد بنا الحديث؟ . . وأين سينتهى؟ . . ولكننا وبعد أن تفرعنا يمينًا ويسارًا وجدنا أحمد منصور قبل أن يُنهى هذا الاجتماع يتناول حزمة من

الأوراق من على يساره وهو يلوح بها فى مواجهتنا مبتسمًا، ثم قال لنا إنه مشروع مذكرة سيتم تقديمها ـ كمؤسسين للحزب ـ إلى السيد الرئيس نقترح فيها على سيادته أن يرعى مشروعنا ـ هذا ـ الذى نراه ملائمًا للخروج من أزمة تداول السلطة وحل اللغز المبهم الذى يعوق تحقيق هذا التداول . . لغز الفجوة بين الدستور وواقع الحال الذى لا يحقق ما جاء بالدستور . . لغز عدم ملء فراغ وظيفة نائب الرئيس وإمكانية الاصطدام بهذا الفراغ إذا تطلب الأمر تسمية رئيس للجمهورية . .

وراح أحمد منصور يقرأ النقاط الرئيسية التى سيحملها هذا الاقتراح دون أن يتطرق للحواشى والمقدمات والخاتمة . .

١ـ أن يعلن الرئيس عدم رغبته فى الحصول على مدة رئاسية جديدة . .

٢ـ أن يطلب من الأحزاب ـ أيًا كان عددها ـ أن تندمج فى حزبين اثنين على الأكثر . .

٣ ـ أن تبدأ معركة الانتخابات طوال عام كامل أو نصف عام بين الأحزاب الأربعة (الوطنى . . ومصر الأم . . والحزبين المندمجين نيابة عن كل الأحزاب) على أن يقدم كل حزب اسم المرشح للرئاسة ونائبه . . بالترشيح المباشر أو من خلال تصفيات داخلية . .

٤ ـ أن تتم هذه الانتخابات تحت إشراف دولى ضمانًا للحيدة والنزاهة . .

٥ ـ ألا تشترك فى الإشراف على الانتخابات أى مؤسسات حكومية أو وزارات سيادية . . ويكون الإشراف لرجال القضاء فقط . .

٦ ـ أن يكون يوم السادس من أكتوبر هو اليوم المحدد لتولى الرئيس الجديد لمهام منصبه فى بداية كل ولاية . .

٧ ـ أن تكون فترة الرئاسة ٥ سنوات ميلادية ولمدة واحدة فقط . . أى يعتلى الحكم رئيسان فى كل عقد [أى كل عشر سنوات]..

(2020 / 2015 / 2010 / 2005 ..... إلخ) .

٨ ـ أن يكون حق التصويت متاحًا لكل مواطن أو مواطنة يتعدى عمرهما الثامنة عشرة .

٩ ـ اعتبار البطاقات الشخصية أو العائلية هى البطاقة الانتخابية، وتخصص صفحة لوضع الختم الدال على الإدلاء بصوت صاحب البطاقة . . مصحوبًا . . برقم كودى مخزّن فى الحاسوب منعًا . . للتزوير . .

١٠ ـ يحق للمواطن أو المواطنة التصويت فى أى بقعة من بقاع الجمهورية دون التقيد بدائرة معينة . .

١١ ـ يُحرم المواطن الذى تخلو بطاقته من الخاتم الدال على ممارسة التصويت من ممارسة أى حقوق سياسية كالترشح فى النقابات أو المحليات أو الأندية . . أو التمتع بأى مجانية أو تخفيض يتاحان ـ للمواطن الملتزم ـ فى أى نشاط اجتماعى أو ثقافى أو مهنى . . (أى تعطيل حقوقه السياسية نظرًا لإهماله فى ممارستها) . .

١٢ ـ إدخال نظام الحاسب الآلى فى عمليات تجميع الأصوات، وفرزها بشكل حضارى متقدم يمنع الاجتهادات الشخصية ويحقق الشفافية المطلوبة . .

١٣ ـ عدم التقيد بحصول الفائز على نسبة معينة من الأصوات؛ والعبرة فى تحديد الفائز هو نسبة عدد الأصوات مقارنة بباقى المرشحين .

١٤ ـ يتاح لأفراد القوات المسلحة ممارسة التصويت داخل ثكناتهم العسكرية وبموجب بطاقاتهم الخاصة (عائلية / شخصية) كبقية أفراد الشعب . .

١٥ ـ يتاح للجاليات المصرية خارج البلاد ممارسة التصويت داخل سفارات مصر وبإشراف طاقم كل سفارة . .

١٦ ـ يتم تقسيم فترة الانتخابات إلى ثلاث مراحل ، المرحلة الواحدة مدتها ثلاثة أيام يتم فيها جمع أصوات ٩ محافظات فى كل مرة لتغطية كل محافظات الجمهورية على أن تعلن نتائج كل فترة أولاً بأول . .

١٧ ـ يتم تعديل الدستور للأخذ بهذا النظام، وأن يؤخذ فى مبدأ تداول السلطة قيام نائب الرئيس بتولى الحكم إكمالاً للمدة الرئاسية فى حال خلو مقعد الرئاسة لأى سبب . .

ثم راح أحمد منصور يحدثنا فى عجالة عن أهم ما فى الحواشى والمقدمات، وكيف طرح على الرئيس الأخذ اقتصاديًا بسياسة السوق المفتوح والاقتصاد الحر؛ على أن تراعى هذه السياسة حالة الطبقة الفقيرة خلال الفترة الانتقالية اللازمة لاستقرار هذه السياسة ونجاحها ودخول الطبقة الدنيا فى منظومة العمل والإنتاج.. وأن ما يجب أن يُهتم به فى بناء المجتمع المصرى الحديث هو عقول الناس ونفوسهم.. والعقول لا تبنى إلا بالعلم، والنفوس لا تعتدل إلا بالتمسك بالقيم البناءة المتوارثة.. ولنا فى اليابان قدوة حسنة؛ فاليابان لم تأخذ من الغرب سوى العلم والتكنولوچيا.. أما الأخلاق ا - كالاحترام وتقديس العمل والمسئولية والولاء والانتماء فهى القوة الدافعة ضية الشفافة النقية لجودة العمل وحسن التحصيل والدراسة والتطوير.. «ولا ب أن ننسى يا سيادة الرئيس أن اليابان بدأت رحلة التحديث وهى تقتفى أثر محمد على باشا فى ذلك التحديث عندما اعتبروه نموذجًا عصريًا يجدر الأخذ به، وكان ذلك بالتحديد فى عام ١٨٦١ عندما جاءت بعثة الساموراى اليابانية لتشاهد الجسور فى مصر والقناطر والسكك الحديدية ويعودوا إلى بلادهم مبهورين تأخذهم الدهشة..

أين هم الآن؟.. وأين نحن؟.. وماذا حدث؟..

ما حدث هو أنهم لم يهتموا بالآلة قدر اهتمامهم بمن يدير هذه الآلة.. وفهموا أن النجاح يكمن فى حسن الإدارة.. والإدارة يقوم عليها أفراد.. فاهتموا بتطوير نفوس الأفراد وإحياء القيم البناءة والسلوكيات القويمة فى هذه النفوس.. فالفكر الابتكارى، والأخلاق، والعلم هم أضلاع المثلث الذهبى للتقدم، فالأموال بدون علم وفكر وأخلاق مصيرها الفناء.. ولكن من الممكن أن يأتى العلم والفكر والأخلاق بالأموال..

إننا ننجرف لمواجهة تحديات كبرى فى هذا العالم الذى تتسارع خطواته نحو التقدم، ولن يحمينا من الضياع إلا تمسكنا بالعلم والفكر والقيم البناءة..

كان أحمد منصور ينتقى بعض الفقرات التى رأينا أنه لا يقرأها علينا قدر ما يستطلع رأينا فيها.. مستوضحًا مدى ملاءمة هذا النوع من المخاطبة مع رئيس البلاد.. وهل من الممكن أن يؤاخذ على ذلك؟.. أم أن ما يسود المجتمع الآن من إطلاق لحرية الرأى سيعصمه من الإهانة؟..

وراح يستطرد:

(. . . . . انتهى بعض المثقفين الذين يؤرخون للشخصية المصرية ويُخرجون من بطون الكتب ـ قديمها وحديثها ـ مدى تعاسة هذه الشخصية إلى تأكيد ما قاله المقريزى من أن: الذل مصرى الجنسية، وأن المصرى كان محاصراً دومًا بين حاكم ظالم، وكاهن منافق؛ وإقطاعى جشع. . وكان يجب ألا يستمر هذا المسلسل ليصل إلى أعتاب القرن الحادى والعشرين عندما بدأ تحطيم الشخصية المصرية. . وتحطيم الإنسان المصرى ماديًا وروحيًا وتفكيك طبقات المجتمع المصرى، وهدم الطبقات المتوسطة العاملة. . فتجربة الخصخصة وبيع القطاع العام وطرد الفلاحين الفقراء من أراضيهم تجربة لم تسفر إلا عن تحطيم معنويات الشعب المصرى، ولم تكن سوى نوع من التغيير الجذرى السلبى الذى لا يحمل فى جوانبه سوى الهدم وليس البناء. . وسوى التراجع وليس التقدم. . فإذا كان هذا المسلسل قد بدأت بوادره من أيام السادات الأخيرة، فقد كان أولى بك يا سيادة الرئيس إما أن ترفض إكماله بهذا الشكل فى عهدك، وإما أن تلجأ إلى تنفيذه بمخطط مدروس يتحاشى الوقوع فى ذلك المحظور الذى وقع. . المحظور الذى تخشاه كل الدول ـ التى تبنى نفسها ـ من أن تتسع الهوة بين طبقتين. . طبقة عليا حاكمة متحكمة. . وطبقة دنيا لا حول لها ولا قوة. . وفيما بين الازدهار الخرافى للطبقة العليا على حساب التدهور الخرافى ـ أيضًا ـ للطبقة الدنيا تذوب الطبقة الوسطى. . وهذا ما يحدث فى مصر الآن. . .).

عمد أحمد منصور إلى إحدى سجائره، فراح يشعلها بتعجل يوحى برغبته فى استمرار القراءة إلى أن أوقفته بإشارة من يدى:

ـ من الواضح أن خطابنا للرئيس سيأتى فى شكل كتاب. .

ردد أحمد منصور، وقد تسارعت أنفاسه:

ـ أو. . كتيّب. .

قال الصاوى: لا أعتقد أن الرئيس سيقرأ كل هذا الكلام إن لم يكن بسبب ندرة الوقت الذى يسمح له بذلك، فسوف يكون من قبيل الامتعاض. . فنحن لا نقدم مشروعًا قدر ما نقدم النقد الجارح للوضع القائم. .

قال إمام: وهذا النقد يتنافى مع التقارير العظيمة التى يقرؤها مكتوبة من رجال الإدارة حول تحسن الأحوال وكثرة الأموال.. والخير الذى يعم البلاد والعباد..

وقالت راوية: أنت تنصحه باتباع سياسة السوق المفتوح.. وهذا ما تقوم به الحكومة الآن.. أو على الأقل ما تعلنه الحكومة الآن..

عاجلها أحمد منصور قائلاً:

ـ آسف.. ليس هذا ما تقوم به الحكومة الآن.. ولا يهمنى التعرف على هذا الذى تقوم به قدر تلمّسى لنتائج وثمار ما تقوم به..

ثم عمد إلى أوراقه فاستخرج منها ملفّا صغيراً به عدة صفحات تشير إلى أنه تلخيص لكتاب أعجبه، فقد قرأت على غلاف الملف ـ بالخط العريض ـ كتاب: «وداعًا للطبقة الوسطى.. د: رمزى زكى».. وعند صفحة معينة توقف عن تقليب الصفحات ورنا إلينا، وقد ضاقت عيناه وهو يتأملنا..

النتائج والثمار التى أبحث عنها هى التى حصدها العالم الرأسمالى عند التطبيق السليم للرأسمالية، والتى لخصها الدكتور رمزى زكى كالتالى:

ـ تحسنت أحوال العمال تدريجيّا..

ـ ارتفع مستوى الأجور ارتفاعًا تدريجيّا..

ـ اشترك العمال فى رفاهية التقدم التكنولوچى..

ـ ظهرت دولة الرفاهية بعد الحرب العالمية الثانية..

ـ أعيد توزيع الدخل لصالح الطبقات الدنيا..

ـ زيادة معدلات الأجور عن أى وقت مضى..

ـ انخفضت البطالة إلى أدنى حد..

ـ تم تطبيق نظام التأمين ضد البطالة.

ـ زاد حجم الطبقة الوسطى نسبة إلى حجم السكان..

ثم رفع رأسه الينا وهو يعيد تأملنا :

ـ هل شعبنا المصرى المطحون يتمتع بهذه المزايا فى ظل الرأسمالية الزاحفة؟ . .

هتف إمام :

ـ ومن قال إننا نطبق الرأسمالية . . أو حتى الاشتراكية؟ . . نحن نطبق سياسة السمك / اللبن / التمر هندى . . أهم ما يجيده الأثرياء فى بلدنا هو التهرب من الضرائب . . لو طبقنا نظامًا ضريبيًا صارمًا مثل الذى تطبقه أمريكا ربما كنا صادفنا النجاح . . عدم دفع الضرائب يُحدث خللاً فى دخل الدولة ينعكس على دخول الأفراد؛ مما يجعلهم يلجؤون إلى قبول الرشوة أو الاختلاس لإكمال تكاليف معيشتهم . . ولذلك فأكبر جريمة فى أمريكا ـ والغرب عمومًا ـ هو الكذب على الضرائب . . هل سمعت فى أمريكا عن ضابط مرور يطلب رشوة من السائقين؟ . . بعض أفراد المرور فى مصر يقفون على قارعة الطريق لتقليب جيوب السائقين، وأحيانًا يكون ذلك باطلاع الضباط . . المصيبة تبدأ من عندنا . . وتنتهى أيضًا عندنا . .

ابتسمت راوية فى مرارة وهى تسمع إمامًا ينسج من مأساته الخاصة رأيًا جمعيًا ببساطة وذكاء . . فقالت له . .

ـ يا معلم إمام . . أنت تتحدث فى تفصيلة واحدة من مئات التفاصيل المترتبة على سوء التطبيق، ولو فتحنا هذا الباب فلن ننتهى . .

ثم توجهت إلى أحمد منصور قائلة :

ـ كنت قرأت تلخيصًا لهذا الكتاب للدكتور جلال أمين، وأذكر أنه تنبأ فيه بسقوط الرأسمالية فى أقرب وقت . . المتنبئ هو د. رمزى، وليس د. جلال . .

تهلل وجه أحمد منصور؛ إذ وجد من يعزف معه على نفس النغمة . .

ـ فعلاً . . وذكر أن أسباب هذا السقوط تتمثل فى أن مكاسب الثورة الرأسمالية الحديثة والتى أسماها ثورة التكنولوجيا يتم توزيعها بشكل استقطابى جدًا على فئة قليلة جدًا من الأفراد؛ مما دعا إلى انتشار الجريمة والعنف والعنصرية . . أو بالأحرى . . الإرهاب . .

تساءلت أمامهم :

ـ إذن ، فالإرهاب جذوره اقتصادية . . وليست دينية؟ . .

هتف إمام :

ـ طبعًا . . هل تذكرون الشاب الصعيدى الذى قتل سائحة إنجليزية فى التسعينيات عندما أطلق الرصاص على أتوبيس سياحى من حقول القصب . . كان يحمل دبلوم صنايع . . وعاطلاً لا يعمل . . نال عدة جنيهات مقابل ما فعله . . لأنه لم يكن يملك ثمن علبة سجائر . . وكان سعيدًا بالمهمة . .

هز أحمد منصور رأسه فى أسى :

ـ إنها فضيحة بكل المقاييس . . وتُهم غير صحيحة تُلصق بالشخصية المصرية . . الشخصية التى تتسم بالكرم والشهامة والتسامح والاتزان والتأنى وعدم التهور . . وكل هذه المواصفات التى سمعتموها الآن هى الصفات التى اكتسبها المصرى من النظام النهرى الفيضى . . أما ما عدا ذلك من صفات سيئة فقد طرأت على الشخصية المصرية من جراء الاحتلال المتواصل . . ولذا فأنا أقول إن العودة إلى منابعنا الأصلية الأصيلة لننهل منها هو الحل . . . لا بد أن نعود إلى موروثنا الثقافى الحقيقى . .

قال له مفتاح الصاوى :

– هل تقصد القول بأننا يمكن أن نصل إلى النهضة المطلوبة بعوامل داخلية فقط . . لا تنس أن اليابان لم تنهض إلا عندما تلمست وسعت إلى العوامل الخارجية خاصة عند أمريكا . .

عاجله أحمد منصور بهذا الرد :

ـ ولا تنسَ أنهم فى الخارج لا يملكون نظرة موحدة لنا ، بل إننا لا نملك نظرة موحدة تجاههم . . ولذا فإن سعينا للاستقواء بتجربتهم مرهون باقتناعهم بمدى رغبتنا فى الانفتاح على روح العصر ، وأن نظام القيم لدينا لا يتنافر مع نظام القيم لديهم . . فتفردك بقيمك الخاصة واعتزازك بها وبنقائها وخصوصياتها سيُجلى أمامهم هويتك التى تساعدهم على التعاون معك فى إنجاز نهضتك . . إنها علاقة تقترب من علاقات

المصاهرة . . فأنت لن تدخل فى مصاهرة مع زوج لابنتك قبل أن تتأكد أنه من أسرة أصيلة ذات قيم أخلاقية وعادات وتقاليد تقترب من قيمك وعاداتك . .

وبفراسة ابن البلد تدخل إمام إمام فى الحوار :

ـ يبدو لى أنكما تتحدثان وتجربة اليابان بينكما على الطاولة . . اليابان لها شخصيتها الخاصة التى حافظت عليها ولم تفرط فيها . . وكان يجب علينا ونحن نملك شخصيتنا الخاصة أن نتقدم أسرع من اليابان . . والعذر الأزلى من أننا عانينا من الاستعمار ، وأنه هو الذى أدى إلى تخلفنا هو عذر ساذج وغير مقبول . . والدليل على ذلك أن اليابان وهى مثلكُم الأعلى لم تكن تملك أى قرار سياسى بعد هزيمتها فى الحرب الثانية ، بل إنها تورطت فى إتاوة زادت عن الـ ١٣ مليار دولار بعد الهزيمة . . ومع ذلك فقد صار تقدمها هو الصداع الساكن دومًا فى رأس أمريكا . . بل إننى أستطيع المبالغة والادعاء بأن ما تسعى إليه أمريكا من السيطرة على منابع البترول فى العالم مرجعه إلى السيطرة على غول التقدم المنفلت فى شكل اليابانيين وبعدهم الصينيون الذين يجب التحكم فى قدرتهم على الانتاج كمًا ونوعًا بعد أن غزوا العالم ببضاعاتهم التى تتراجع أمامها بضاعات أمريكا . . وواضح من إصرار اليابان والصين على مواصلة الغزو والتحسين أن إنتاج أمريكا سيزداد تراجعًا . .

وتساءلت الدكتورة راوية :

ـ وأين نحن فى هذا السباق؟ . . ما زلنا نفكر كيف نبدأ . . وهؤلاء الناس قطعوا أشواطًا خرافية فى الحلبة . . ألا يكفى ذلك لجلب اليأس والهزيمة؟ . .

قلت لها مداعبًا :

ـ أبشرى يا دكتورة . . لا تيأسى ، فحكومة الدكتور نظيف سوف تبدأ بالتكنولوچيا . .

ردت وهى تتنهد :

ـ كيف أكسو حائطا من الطين اللبن بشرائح الرخام الثمين . . الحائط لن يصمد طويلاً . . فالرخام ثقيل على بدنه الضعيف . . سوف ينهار هذا وذاك . . كلها محاولات يائسة للتجمُّل الزائف . . بل كلها إعلانات ساذجة توحى لنا كذبًا أننا داخل

العصر مع أننا خارجه . .

قال لها أحمد منصور :

ـ أنا أضع معك خطين تحت كلمة « توحى لنا» . . فنحن نتحدث مع أنفسنا . . ونخدع أنفسنا . . ولو كنت قلت (توحى للعالم . . أو توحى لهم) لكنت عارضتك . . فالعالم يعلم من نحن . . وهناك من لا يعرف من نحن؟ . . وأين نعيش؟ . .

ثم تنهد طويلاً . .

والتقط أنفاسًا ثقيلة . .

ووضع يده على جبهته كأنه يتحسس صداعًا وليدًا . . ثم التفت إلينا بعين كليلة تغالب الإجهاد . . ثم قال :

ـ على كل حال . . كتابى إلى السيد الرئيس . . والذى ستصل نسخ منه إلى كثير من المؤسسات سيجمع كل أفكارنا وآرائنا ، ولكن قبل أن يصل إليهم ستصلكم النسخ الخاصة بكم للتعديل والإضافة والحذف . . وأهم ما فى الأمر أن نلحق بتقديم طلب إنشاء الحزب قبل أن نعاود المثول أمام السيد / وكيل النائب العام . .

* * *

(٧)

إنه رجلنا القادم .. بهدوء ..

واشنطن

سرى وهام **وكالة المخابرات المركزية الامريكية**

C.I.A

سعادة السفير .

بعد التحية :

منذ أن أوكل إلينا السيد نائب وزير الخارجية متابعة الولادة العجيبة لحزب (مصر . . الأم) ونحن نعمل بكل جهدنا (لتوليد) هذا الحزب تبعًا للنصائح والخطط التى أسبغها علينا سيادته . .

لقد جاءت روح الحماس الذى أخذ بناصية قلوب هؤلاء الأشخاص المؤسسين للحزب مع نفس الروح التى أخذت بناصية قلوب الإدارة الأمريكية ببث حكومات إصلاحية فى سائر الدول العربية تدين شكلاً لشعوبها وجوهرًا لنا . . ولعل الولادة الفجة لحكومة العراق الجديدة لم تنطل على العراقيين ، خاصة فصائل المقاومة التى تعمل تحت الأرض . . كما لم تنطل على جموع كبيرة من العامة والمثقفين . .

إننا سنقوم باستخدام أسلوب (الإيحاء) فى معالجة هذا الموضوع . . ولن نبث الإيحاء بشىء ما إلى شخص ما إلا إذا كان ما نوحى به ليس سوى فكرة كانت تراوده ويتمنى تنفيذها . . ومن ثم فتسهيل تنفيذها وتذليل ذلك له سيجعله أكثر إيمانًا بهذه

الفكرة ذلك أن (الله) سيكون فى نظره قد تدخل فى الوقت المناسب و (ساعده) على تحويل حلمه إلى واقع . . هكذا يفكر المسلمون ويقومون بتوظيف فكرة (الإلهام الإلهى) إذا انتصروا على عجزهم بالصدفة . . وليكن من الأسرار التى ما زلنا نحتفظ بها أننا استخدمنا هذا النوع من الإيحاء للضابط الشاب خالد الإسلامبولى عندما عرفنا مقدار الحقد الذى يكنه للسادات ، وعندما أكد لنا رجلنا هناك أن ما سمعه بنفسه من هذا الضابط من قول همس به لمحمد عبد السلام فرج فى أحد مساجد إمبابة من أنه كان يتمنى أن يكون من المشاركين فى طابور العرض ليقتل السادات جعلنا نهيىء له سبيل المشاركة فى الطابور . . والباقى معروف . .

إننا نركز الآن على تصعيد شخص وشخصية المعلم إمام إمام فى الحزب . . لقد تألقت وطنية وكيل النيابة (مرقص بستخاروس) وصرف الأعضاء من سراى النيابة بمجرد أن قدموا له ورقة صغيرة تفيد بأنهم حزب تحت التأسيس . . وعفا عنهم لأنه يملك الاستعداد الوطنى لذلك . . ولكن بعد أن يتأكد له قيمة ذلك الاستعداد من خلال توصية من رئيسه الأعلى . . فقد تؤتى فكرة الإيحاء هنا بثمارها . .

لقد لمح السيد (كولين باول) عمق شخصية المعلم إمام إمام . . ورأى أنه الشخص المطلوب على رأس منظومة الإصلاح السياسى المأمول فى مصر . . ولكنه أيضًا ـ أى مستر باول ـ لمح انزعاجنا من هذا الترشيح الغريب لرجل لا يملك أى مقومات للسياسى الذى يقود حزبًا ، وبالتالى الزعيم الذى يقود أمة . . وكان من رأى (باول) أن هذا الموضوع بالنسبة للعرب لا يحتاج إلى كل هذه الكيمياء . . بالعكس إنه يرى فى شخصية إمام مقومات نحن بحاجة إليها . . يكفى الشهادة التى قالها فى حقه المحامى أحمد منصور من أن العباقرة فى العالم لو ازدادوا واحدًا فسوف يكون هو الأسطى إمام . . إن إمام رغم تديّنه قد لمح أن تقدم أوروبا والغرب كان سره الأعظم هو فصلهم الدين عن السياسة . . وطالما أن هذا الرجل لديه الاقتناع الذاتى بذلك التوجه فسوف يكون من السهل ألا يسجل الدستور المصرى لأول مرة عبارة (أن الدين الإسلامى هو المصدر الرئيسى للتشريع) . . ولو فعلت مصر ذلك . . فسوف تكون مقدمة لاقتناع دول أخرى بهذا المبدأ . . إن إمامًا هذا منبهر بتجربته مع الخواجات فى جنوب أفريقيا . . ويؤمن بسلوكياتهم الحياتية وعقليتهم الخلاّقة ويعلم أن الكثيرين منهم

يحتفظون بالدين فى قلوبهم ويتحركون به فى أعمالهم . . ولا يتاجرون به . . هذا لمجرد معايشته لبعض من هؤلاء لعدة سنوات فى بلد مستعمر . . ما بالك عندما يشاهد الحياة فى أمريكا بكل زخمها وحلاوتها؟ . . (ولا بد أن نهيئ له الفرصة لذلك) . . ليجد أن العدالة فى تطبيق القوانين على كل الناس شيء يفتقده الشرق رغم تعاليم دياناتهم . . ويرى أن التكافل الاجتماعى الذى يتمنونه لمرضاهم وعواجيزهم وأراملهم وأيتامهم تقوم به مؤسساتنا لكل هذه الحالات فى منظومة لم ولن يصلوا إليها . .

هكذا ناقشنا فى اجتماعاتنا كل كلمة قالها إمام، بل وتتبع رجالنا دقائق حياته اليومية منذ أن وضعناه تحت المنظار واكتشفنا أنه يملك من الدهاء ما يعجز المرء عن تفسيره؛ ذلك أننا نكاد نضع أيدينا على قصة يعيشها ستثير العجب فيما لو ثبت صحتها . . ولن نكتب لكم عنها إلا إذا تأكدنا فعلاً من صحتها . .

لقد قال لنا مستر باول عودوا إلى مذكرات روميل ومونتجمرى لتتعرفا منهما على عبقرية الشخصية المصرية . . شخصية ابن البلد الذى يملك ثقافة واسعة لم يتعلمها فى المدارس والجامعات . . شخصية الرجل العادى الذى يمكنك أن تستهين به قبل أن يتكلم . . ولكنك تعتدل فى جلستك أمامه عندما يتكلم . .

لقد عدنا فعلاً إلى هذه المذكرات لنجد أن مونتجمرى يحكى عن راعى غنم اسمه (عبده شوشان) أصر على مقابلته كاسرًا كل الأطواق العسكرية المضروبة حول القائد، وقابله بهدوء وفى غير انزعاج من الهالة المخيفة التى تحيطه مستوضحًا منه سر نيته فى تسميم الآبار الموجودة فى العلمين . . وأفهمه مونتجمرى : «أن الحرب لا ترحم . . ولا بد أن نحرم جنود روميل من مياه الشرب . . ألديك حل آخر ؟» . . وكان لدى (عبده شوشان) الحل الذى لم يَدُر بخَلَد القائد العظيم . . قال له : ضع نصف شوال ملح فى كل بئر بديلاً عن السموم حتى نهنأ بمياهنا عندما نعود إليها بعد الحرب، وانصرف شوشان فى ثقة وقد ترك القائد ورجاله، وقد أخذهم الانبهار بعقلية هذا الرجل البسيط . . .

تلك هى الشخصية المصرية التى تفهم مسبقًا ما أنت قادم إليه من خطر وتحذرك منه وتؤكد لك أنك لن تنجح فى مسعاك . . وإذا رفضت نصيحتها يقول لك (أحلق شنبى لو نجحت) وحلق الشنب عند البدو نوع من العار . .

يقول روميل : إن مسألة (أحلق شنبى) هذه لم يلتفت إليها إلا بعد فوات الأوان . . ويحكى أنه كان قد قابل الشيخ (علوانى الجمز) عمدة منطقة سيدى عبد الرحمن لأول مرة، وكان للعمدة لحية وقورة . . وفى لقاء ثان على وليمة أعدها العمدة للقائد الألمانى وجده بشنب دون لحية . . فسأله ضاحكًا لماذا حلقت لحيتك؟ . . فقال له العمدة : حلقتها احتفالاً باحتلالك منطقة سيدى عبد الرحمن . . فسأله مرة ثانية ضاحكًا : إذن ماذا ستفعل إذا احتللت القاهرة والإسكندرية؟ . . فقال له الشيخ علوانى الجمز بسرعة : أبقى أحلق شنبى . .

لقد كان العمدة العبقرى يلمح أن العد التنازلى كان قد بدأ على الجانب الآخر، وأنه لم يبق سوى أسبوع واحد على معركة العلمين ويلمح كثافة استعدادات الإنجليز للانتصار فى هذه المعركة الفاصلة . . وأن النصر لمونتجمرى لا محالة . . ولذا فإن خسارته لشاربه أمر لن يتورط فيه . . وثبت صحة فراسته عندما اندحرت قوات المارشال روميل أمام قوات المارشال مونتجمرى . .

ولقد تطوع أحد رجال الإدارة وسرد علينا ما قرأه ذات مرة مكتوبًا فى مذكرات جعفر النميرى رئيس السودان الأسبق الذى كان يحكى عن زيارته المنزعجة لأنور السادات عندما تخلى عنه نصف رجال حكومته وقدموا استقالة جماعية لإحداث انهيار دستورى فى مؤسسة الحكم فى حادثة مايو ١٩٧١ . . وعندما وجد السادات هادئًا ورزينًا ولا يتولاه الانزعاج سأله عن سر هدوئه . . فما كان من السادات إلا أن أخذ النميرى من يده ونظر معه من الشباك على الشارع المزدحم بالمارة وقال له : يمكنك أن تنادى على عشرة أفراد من هؤلاء . . وسأجعل من كل واحد فيهم وزيرًا لوزارة ما . . وسينجح فى مهمته . . يقول السادات : المسألة مسألة ولاء . . وليست مسألة أفراد . .

ونحن بدورنا نقول إن إماما يجمع بين الفرد المتحمس . . والفرد الذى يحمل ولاءً وعبقرية . . إنه رجلنا القادم بهدوء . . فلنمنحه القوة . .

وكيل إدارة المخابرات الأمريكية

C . I . A

التوقيع . . . . . .

(٨)

نصف دستة من المواطنين .. الأحرار

أحسسنا برياح التغيير تهب على وجوهنا ـ فعلاً لا قولاً ـ عندما تمت الموافقة بهذه السرعة على إنشاء حزب (مصر . . الأم . .) وحملت الصحف الرسمية بيان الحزب وأسماء مؤسسيه وراحت تنهال علينا طلبات الانضمام من كل حدبٍ وصوب . .

وعدنا إلى المنضدة المثلثة لنملأ ضلعيها الأيمن والأيسر بامرأتَين . . ومسيحيَّيْن . . وعامل . . وفلاح : ثلاثة على كل ضلع . .

عمدنا إلى كشوف الانضمام لنتعرف من الطلبات على أسماء أول المشاركين ؛ فى الشهر الأول . . كنا نفعل ذلك ونحن نعلم أنهم أخطر المشاركين ؛ إذ باختياراتهم سيتحدد اسم رئيس الحزب وسكرتيره وأمين الصندوق . . تلك ستكون أول مهمة فى أول اجتماع للّجنة التأسيسية . . اللجنة التى اخترنا أن تكون متغيرة الأفراد لأكثر من نصفها كل شهر حتى نطيح بفكرة الاستمرار الآثم . . الاستمرار الذى يطحن الأفكار المتجددة تحت عجلاته . . الاستمرار الذى تنمو فى ظله بذور الديكتاتورية وتشيخ الأفكار ويترعرع الركود . .

المرأة الأولى هى :

صباح سعد عبد الله . .

ـ إخصائية اجتماعية تعيش فى قرية (نكلة العنب) . .

ـ متزوجة ولديها ثلاثة أولاد ذكور .

ـ زوجها يعمل بالمقاولات المعمارية .

ـ من خلال عملها وضعت يدها على حقيقة البؤس الاجتماعى الذى تعيشه السيدات الريفيات الفقيرات ، وتؤكد أن ما يتحدث عنه المثقفون فى نواديهم وصالوناتهم المغلقة من رفض أو استنكار أو احتجاج على أداء الحكومة هو نفس ما تتحدث به الريفيات . . الأسلوب فقط هو المختلف . . بل إن صباح هذه ترى أن عفوية التعبير عند هؤلاء الريفيات يحمل من السخونة وحسن التوصيل ما يفتقده حديث أهل الثقافة . . فعندما تشتكى لها إحدى النسوة من غلاء المعيشة . . فسوف تضرب مثلا بنفسها قائلة :

ـ البطاطس المقلية كنا بنعملها جنب الأكل . . حاجة كده زيادة خير . . دلوقت عشان أعمل بطاطس عايزه عشرة جنيه . . بطاطس وزيت . . الزيت القزازة بسبعة جنيه . . والبطاطس الكيلو اتنين جنيه . . والكيلو الرخيص اللى بناخده على بطاقة التموين مالوش لزوم . . طيب لو البطاطس غالية علينا . . إيش حال اللحمة اللى بنسمع عنها؟ . .

وتقول صباح : إن ما يستفزها ليل نهار هو إعلانات التليفزيون عن الأطعمة الراقية . . وتتساءل لمن تبُث هذه الإعلانات؟ . . ثم توضح سر انضمامها للحزب قائلة : كنت أتمنى أن أعثر على المكان الذى أصرخ فيه أو أهلل أو أزعق بالصوت الحيانى : يا خلق هوه . . حرام عليكم . . الناس بتموت . . علشان ناس تانية سارقين رزقهم وأكلهم وشربهم . . يا ترى حاقدر أصوّت وأصرّخ عندكم من غير ما ادخل السجن؟ . .

نورا إبراهيم جعفر

المرأة الثانية فإنها من شبين القناطر :

* كانت فى زيارة لعدة أيام لمعاونة أختها المريضة بالقناطر . . حيث كانت تقوم على خدمتها . .

* سمعت عن الحزب الجديد . . فسارعت بالانضمام إليه . .

* هى تحمل الشهادة الإعدادية . . وتجيد القراءة المتفحصة للصحف . . وأصبحت

تكتشف الصدق فى مكانه والكذب أيضا . .

* متزوجة ولم ترزق بأولاد . .

* تريد أن تجد نفسها وشخصيتها فى أى عمل عام، خاصة وأنها تلمح نية زوجها للزواج بغيرها بعد أن يئس من علاجها حتى تنجب له ولدًا . .

أما عن المسيحيَّين الاثنين، فإن الأول هو :

عزت رمزى كامل . .

ـ من قرية (الحادثة)

ـ يعمل مساحًا بمديرية الأملاك . .

ـ مغرم بالحديث فى السياسة . . ويتابع صحيفة واحدة هى صحيفة الأهرام . . يطّلع على الصحف الأخرى بالاستعارة الوقتية ممن يحمل الصحيفة . . أو يقرأ العناوين البارزة مكتفيًا بذلك فى وقفته عند بائع الصحف . .

رغم أن وظيفته تسمح له بالتربح وقبول الهدايا إلا أن زوجته المبحرة فى بحر المسيحية تحاسبه على كل مليم يدخل به المنزل لتتأكد من مدى كونه جاء من حلال . .

كان يمسح أرضًا واسعة لأحد الأثرياء فحمّله بما لذ وطاب من عزبته . . لحوم . . ودواجن . . وعسل . . وجبن . . وخبز . . وفطير . . فكان رأيها أن هذه الهدايا الكثيرة لا يمكن أن يمنحها صاحبها مجانًا وقررت ألا تقربها . . وجعلته يفكر فى إعادتها . . ولم يوافقها بالطبع . . وظلت هذه الهدايا رهن استخدامه هو فقط دون زوجته المتشددة والأولاد . .

يرى أن الوفد الذى كان ممثلاً فى عظمائه : النحاس . . سعد زغلول . . مكرم عبيد . . إبراهيم فرج . . صبرى أبو علم . . هو الحزب الجدير بالفخر عن ماضيه الزاهر الزاخر، والجدير بالحسرة على حاضره المستكين المفتقد لقوة الإرادة وروعة التجديد . .

والمسيحىّ الثانى هو :

فيكتور ثروت عبد المسيح :

ـ من قرية أبو غالب . .

ـ مدرس ثانوى تاريخ . .

ـ يكتب القصة . . والنقد الأدبى . .

ـ يؤكد أن مصر بكل ما فيها من مثقفين ومفكرين يجب أن تكون الطليعة لتقدم كل من حولها من العرب وأن ما ينعم به العرب من ثراء رفلوا فيه بسبب البترول يجب ألا يكون هو الفارق الحضارى بيننا وبينهم . . فما ينعمون به من بريق النعيم لا يعبر عن إمساكهم بزمام الحضارة، فإنهم فى نظره لا يزيدون عن كونهم مستهلكين لمظاهر التقدم ولا يصنعون هذا التقدم . . وبما أننا مثلهم مستهلكون أيضًا فيجب أن نفرّق بيننا وبينهم بالقول: إنهم مستهلكون فوق العادة . . فهم يقتنون أحدث الموديلات والاختراعات والموضات فى المأكل والملبس والمسكن ووسائل الانتقال . . وبأغلى الأثمان . .

واتضح أن فيكتور لا يحب العرب؛ لأن جسده النحيل ما زال يحمل خطوطًا سوداء متقاطعة هى الأثر الباقى على جسده من علقة ساخنة أكلها فى أحد أقسام الشرطة بدولة خليجية لمجرد أنه اشتبك مع مواطن من أبناء البلد فى إحدى إشارات المرور، ويتذكر أن هذا المواطن هبط من سيارته . . وخلع عقال الدشداشة وجذب فيكتور وراح يكيل له الضربات بإتقان وتمعّن . . وظلت إشارة المرور معطلة وأصحاب السيارات جالسون فى انتظار التحرك ويستهلكون تلك الدقائق فى استكمال مشاهدة هذه العلقة الصباحية التى ينالها أحد أبناء مصر على يد شخصية وطنية خليجية . . بعدها عرفوا قيمة هذه الشخصية عندما اقتحمت المكان بسرعة فائقة سيارة شرطة جاءت يسبقها صوتها (الونّان) فحملت هذا المصرى الذى أساء لتلك الشخصية ليستكملوا معه معزوفة التأديب الواجبة فى مبنى الشرطة .

فيكتور يقول: لا نحن متحضرون ولا هم متحضرون، وكلنا فى حالة تخلف يأكل بعضنا بعضًا . . كان الأمل معقودًا على ثورة يوليو أن تنقلنا وإياهم إلى أول قطار يتجه نحو التقدم والحرية والعدالة . . وعلى كل حال . . الأمل ما زال معقودًا . . فثورة يوليو لم تكتب شهادة وفاتها بعد . . رغم أن الكثيرين يترحمون عليها . . ولكنه فى نظره الترحم الذى تطلبه لمريض طال مرضه . . الرحمة التى تطلبها: أن يشفى أو يموت . .

فإذا ما جئنا للعامل فإنه :

حمدى محمد عبد الباسط . .

ـ كهربائى سرسيون . .

ـ راسب إعدادية . .

ـ ذاق الهوان بحثا عن عمل فى دولة عربية . .

ـ وقع فى أيدى سماسرة التسفير . . ألقوا به فى سوريا عن طريق البحر ليصرّف نفسه من هناك بالتسلل إلى بيروت . . هرب من الشرطة فى الجبال وأطلقوا عليه نيران بنادقهم هو ومن معه . .

يقول : تعرفت على كلمة الكرامة عندما افتقدتها ولم أجدها معى وأنا أعانى من الجوع والعطش والخوف بعيدًا عن بلدى (الخطاطبة) . . تمنيت أن يكون بساط الريح حقيقة واقعة ـ لا خيالاً فى قصص ألف ليلة وليلة ـ ليحملنى إلى منزلى . . أقسمت أن أقنع بما كتبه الله لى من رزق محدود . . وسأتناول كسرتى من الخبز الجاف ـ وإدامها حتى لو كانت ثمرة طماطم واحدة ـ بنفس راضية وشهية مفتوحة كأننى ألتهم أفخم أنواع اللحوم . .

يقول حمدى عبد الباسط إنه لم يكن يعرف كتابة المذكرات ، ولكنه وجد نفسه يعمد إلى كراسة خالية وجدها فى حقيبته وراح يكتب ما يحدث له يومًا بيوم . . وكلما تعمق فى الكتابة وفى وصف حالته يقع تحت طائلة الدموع . . دموعه تريحه ، وتغمر من حوله من الشباب الضائع بالضحكات المتألمة . .

كنت سارحًا فى ملكوت الله وأنا جالس فى المسجد أتذكر ضياعى فى جبال لبنان عندما استمعت إلى الشيخ صلاح السقا إمام المسجد يحسب للناس التريليونات التى كسبها العرب من البترول . . ويحسب الزكاة التى كان يجب أن يمنحوها لفقراء العرب ومنهم مصر . . كانت المرة الأولى التى أصلى فى هذا المسجد وأرى هذا الإمام الشاب . . فقد جئت إلى القناطر لتوصيل الكهرباء لشقة جديدة كلفنى بها المقاول الذى أعمل معه . . لقد تمكن الشيخ صلاح من إهاجة الذكريات المؤلمة فى نفسى . . وأخذنى

الامتعاض . . كيف لنا أن نتسول؟ . . وعندما وقف الرجل الممشوق اللبق خفيف الدم مفتاح الصاوى يرد على مشروع الشيخ صلاح بمنطق الكرماء أهاج فى نفسى عوامل العزة . . وعندما دعا هذا الرجل إلى حزب (مصر . . الأم) تركت عملى وسارعت لتسجيل اسمى . .

لا أدرى ماذا سأفعل؟ . . ولا أدرى لماذا انضممت إليكم؟ . . ولكنى مستعد أن أؤدى أى دور تكلفوننى به . . أقل ما يمكننى فعله هو الجلوس إلى الشباب وإقناعهم بشىء هام : (اللى يخرج من داره يتقلّ مقداره) .

وهنا صاح الفلاح :

أنا صاحب التعريف الوحيد الذى لا يقبل التعديل أو الإضافة أو الحذف . . الفلاح . . فلاح . . يعرف الحقل ويعرفه الحقل . . يعمل فى أرضه ، وإذا جار عليه الزمن يعمل فى أراضى الآخرين . . أحيانًا يتمحك فى مهنتى بعض البهوات بحثًا عن طريقهم إلى مقاعد مجلس الشعب . . استغلالاً لإصرار جمال عبد الناصر على أن يكون نصف مقاعد مجلس الشعب للفلاحين والعمال . . وعندما تتكدس الكروش على النصف الآخر يتسللون إلى نصفنا المهان . . نصفنا الذى أصبح احتياطيّا . .

اسمى : **عبد الكريم السيد الدسوقى . .**

* تمتعت بخمسة أفدنة تملكتها ضمن من تملكوا مثلها بقوة قانون الإصلاح الزراعى الذى رعاه ضباط ثورة يوليو فى أول عهدهم بالحكم .

* وصلت إلى بر الأمان وربيت أولادى حتى نالوا الوظائف المحترمة بعد تخرجهم فى الجامعة ، وكان وقودى فى هذه الرحلة العطرة إنتاج هذه الفدادين الخمسة . .

* تمتعت بالمشاركة السياسية والعمل الشعبى كعضو فى الجمعية الزراعية وعضو فى المجلس الشعبى المحلى باحثًا مع غيرى عن مصالح الجموع الكادحة من الفلاحين . . المالك منهم والأجير . .

* لم أتمكن من مواجهة النار التى جاءت على غير موعد لتعصف بمكاسبنا وتذروها الرياح . . النار التى خففوا من اسمها بمسمى جديد وهو « قانون العلاقة بين المالك

والمستأجر » عند تعاملهم معنا كفلاحين . . و«مسمى الخصخصة» عند تعاملهم مع عمال قطاع الأعمال . .

* ضاعت منا الفدادين كما ضاعت وظائف العمال . .

* كان يجب أن نلجأ إلى حزب الأغلبية لينقذ مصالحنا . . ولما لم يفعل أيقنت أنه واجهة براقة تُخفى وراءها مصالح أخرى لأناس آخرين لسنا منهم . . أناس تركناهم يتحدثون باسمنا دون أن يعتريهم الخجل من أننا نسمعهم ولا نصدقهم . .

* لو كان ما تقولونه صحيحًا عن قيمة وجودى فى أحد أضلاع المنضدة المثلثة فسوف أعتبر أن هذا هو تاريخ ميلادى الحقيقى . . الميلاد الذى يبدأ بالتعرف على قيمة صوتى . . وقيمة كلمتى . .

وهكذا اجتمع لدينا نخبة من أبناء الشعب . . نخبة انضمت برغبتها . . والتقت حبًا واختياراً مع رغبتنا فى ممارسة فعلية لفكرة الديمقراطية . .

صباح سعد عبد الله

نورا إبراهيم جعفر

عزت رمزى كامل

فيكتور ثروت عبد المسيح

حمدى محمد عبد الباسط

عبد الكريم السيد الدسوقى

وفى دار الأيتام اجتمعت الجمعية العمومية وكانت المنصة مرصعة بأحد عشر عضواً: ثلاث نساء . . وثمانية رجال . . النساء: طبيبة . . وإخصائية اجتماعية . . وربة منزل . . والرجال: محام . . وفنان . . وشاعر . . وفنى معدات . . ومسّاح . . ومدرس . . وعامل . . وفلاح . . كما أن هناك تصنيفًا آخر للأحد عشر: ثمانية من المسلمين وثلاثة من الأقباط . .

راودنى إحساس طيب بقيمة ما نفعله . . وجدوى هذه التشكيلة المتفق عليها . . وأن هذا الحزب الوليد جاء متوافقًا مع حلم رومانسى كان لا يفارق صاحبه ليل نهار، وكانت البداية تشير إلى اطمئنان يسرى فى نفوسنا وقد غمرنا ظل أتى من جناح هفهاف

كان يرفرف فوق رءوسنا . . لعله الأمل . . لعلها البهجة . . ولعلها شفافية القصد وبراءة التوجه . .

كان الاجتماع الأول حافلاً لفت نظرى فيه أعداد هائلة من الكاميرات الفوتوغرافية والتليفزيونية . . ورجال غرباء لا تملك إلا أن تصنفهم تحت بند رجال الإعلام والصحافة . .

كنا نسقنا اللجان المختلفة . . والمهام المحددة لأشخاص محددين لفروعنا بالمحافظات . . ونجحنا فى توظيف الاجتماع توظيفًا عمليّا . . إلا أن ما فشلنا فيه هو التقليل من عواصف التصفيق التى تجتاح المجتمعين رغمًا عنهم ورغم ما أعلنّاه فى الاجتماع العفوى الأول من أن حالات التصفيق فى مصر صارت مستهجنة ومرتبطة ارتباطًا شعوريّا بمواقف النفاق والتهليل الكاذب . . حتى أن الدعابة التى قلناها من تغريم من يصفق جنيهًا واحدًا ذابت وتبددت وصارت ذكرى . .

ولقد اكتملت منظومة البهجة عندما وقفت الدكتورة راوية معلنة أنه تيمنًا بنجاح الاجتماعين اللذين عقدا وبشكل مؤقت فى هذه الدار التى تحتضن فلذات الأكباد من الأيتام، فإنها سوف تشرع فورًا فى بناء طابق جديد بمدخل خاص على الشارع الرئيسى، به مكاتب الحزب وصالة اجتماعات عملاقة تكفى لعدة مئات من المجتمعين . . وأنها تطوعت بنصف تكلفة البناء والمفروشات . . (هل يمكن وقف عاصفة التصفيق وفرض غرامة على من يعلن فرحته بهذه اللفتة الكريمة؟) .

وفى آخر الاجتماع أعلن الأستاذ أحمد منصور ـ بصفته الرئيس المؤقت للاجتماع كأكبر الأعضاء سنّا ـ أن اللجنة التأسيسية ذات المقاعد الثابتة والأخرى المتحركة سوف تجتمع فى موعد أقصاه أسبوعين من تاريخه لتحديد اسم رئيس الحزب ومعاونيه . . ثم اقترح أن يبعث الحزب برقية شكر إلى السيد رئيس الجمهورية، والسادة : لجنة الأحزاب لما قدموه من مؤازرة تُحسب للنظام فى سبيل إخراج هذا الحزب الوليد إلى حيز الوجود ليسهم فى إثراء المناخ السياسى فى مصر . .

ورغم موافقة الجميع على هذا الاقتراح . . إلا أن التصفيق جاء فاترًا قياسًا بما قبله من تصفيق . .

* * *

(٩)

مدخلنا إلى هذا الرجل

عاجل . . هام . . سرى

القاهرة ـ جاردن سيتى

السفارة الأمريكية

سعادة نائب رئيس المخابرات المركزية الأمريكية .

بعد التحية :

كان شاغلنا الشاغل التعرف قبلكم على ذلك الشىء الغامض فى حياة إمام إمام . . الشىء الذى يجعله يهبط الدرجات المؤدية من شقته إلى الشارع بثقة شديدة، ثم يعود فيصعدها بحذر الثعالب متجاوزًا طابقه إلى الطابق الأعلى ليجد الباب مفتوحًا، وهناك رجل وامرأة فى استقباله . . إن ما يقضيه من ساعات طوال هناك تمتد حتى مطلع الفجر ثم يهبط إلى زوجته وأولاده بنفس الحذر الذى صعد به جعلنا نستبعد أن يكون ذلك وكرًا لملذاته . . وعندما تعرفنا على اسم الرجل الذى يستضيفه واسم السيدة التى يخلو بها عرفنا أنهما أخ وأخته . . عكس ما يعرفه باقى سكان العقار من أنهما زوجان . . وتلك هى الحيلة التى تزوج بها إمام إمام زوجته الثانية، وقد وصل به الدهاء أن يستقبل جيرانه سكان الدور العلوى كضيفين : مساعده وزوجته . . ومن العجيب أن تصادق الجارة العلوية جارتها السفلية، وكلتاهما زوجتان لرجل واحد . . إحداهما لا تفهم ما يجرى حولها، والأخرى ضليعة فى المؤامرة . .

الواقع أن شقيق الزوجة المتواطئ واسمه فوزى هو أحد العاملين فى ورشة إمام . . وأنه يدين (لمعلمه) بالكثير . . وأن مشكلته فى عدم العثور على مسكن حُلّت بسهولة عندما عرض على إمام أن يزوجه شقيقته، ساعتها رأى إمام أنه سيضرب عصفورين بحجر واحد . . أن يقتنى زوجة جديدة يهجع إليها من شراسة زوجته الأولى التى طلقها ثم أعادها مرتين، ثم يضمن مسكنًا لمساعده الذى سيكون فى حالة حراسة دائمة لزوجته الجديدة الشابة ذات الجمال الواضح . . وتلك هى القضية العجيبة التى ألمحتم لنا عنها، وأوضحتم أنها ستثير فينا العجب والتعجب فيما لو ثبت صحتها . .

الواقع أننا لم نلتفت إلى هذه الواقعة من قِبَل التسلية والبحث عن نقاط ضعف فى رجل نصبو أن يكون فى حوزتنا . . ولكننا وجَدنا أن هذه الواقعة ستكون هى مدخلنا إلى هذا الرجل . . خاصة بعد أن تأكدنا أنه لا يفكّر ـ وهذا طبيعى ـ فى ترشيح نفسه فى اللجنة التأسيسية على منصب رئيس الحزب فى مواجهة أحمد منصور . . إذ من الواضح أنهم جميعًا سيختارون أحمد منصور بالتزكية : راوية . . ومفتاح . . وجرجس . . وإمام . . وفى الغالب ستكون السكرتارية لمفتاح . . وأمانة الصندوق لراوية . . وهى تقسيمة تفرض نفسها عليهم بحكم ما كان وما يجب أن يكون . .

لقد بدأنا بشقيق الزوجة السرية المتواطئ . . وتم اقتلاعه من الورشة بمحضر تحرٍّ ضده . . وصار رهن الحبس الاحتياطى عدة أيام . . ومنعنا إمام من الدخول إليه أو مشاهدته . . يومها ظهرت علامات لم نكن نعرفها فى شخصية إمام . . حيث هاجم ضباط الشرطة بكلام مقذع يحاسب عليه القانون، وهدد بالاعتصام فى مركز الشرطة إن لم يفرجوا عن رجله . . كان مقدامًا وشجاعًا ولا يخشى سطوة من يصيح فى وجوههم . . عكس أغلب المصريين الذين ترتعد فرائصهم كلما دخلوا أقسام الشرطة ولو للإدلاء بشهادة . . كان كل همنا أن ترتعد فرائص إمام حتى ننقذه من خوفه فيرتمى فى أحضاننا، ولكن ما تمنيناه لم يحدث . . فاستدعاه رجلنا السرى وطرح عليه المصيبة التى وقع فيها رجله وهى التخابر مع إسرائيل . . وأن زواجه السرى من شقيقته يجعلنا نشك فى وطنية إمام نفسه . . خاصة وأن انضمامه إلى الحزب الجديد يؤكد تورطه فى معاداة النظام . . وأن مشاركته فى تأسيس هذا الحزب ليس إلا واجهة . . مثل واجهة زوجته الأولى التى تتستر خلفها زوجة ثانية . .

كان الرجل لمّاحًا وذكيًا . . ظهر ذلك فى ابتسامته الواثقة . . وهزة رأسه المتكررة . . ثم دقق النظر فى وجه رجلنا متسائلاً : من أنتم . . وماذا تريدون؟ . . وبعد فترة صمت واجههم بكلمة يستخدمها المصريون كثيرًا فى السنوات الأخيرة : هاتوا من الآخر . . إيه طلباتكم؟ . .

بعد ذلك صار اللعب على المكشوف . . أفهمناه أن أحمد منصور كشخصية سياسية مثقفة يمثل خطرًا على النظام بعد أن نجح فى إعلان حزبه حيث لا يعلم أننا تدخلنا «لتوليد» هذا الحزب . . كما لا يعلم أننا بحاجة إلى إثراء المناخ السياسى الراكد بحزب جديد له ثقله . . ولكننا لسنا بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، ووجدنا أن كبح جماح هذا السياسى الداهية لا يأتى إلا بإزاحته من الوهلة الأولى عن كرسى الحزب . . وأن إحجامكم جميعًا عن الترشيح أمامه يعتبر نوعًا من الأداء الروتينى الذى لا يخدم فكرة الديمقراطية . . فلتبدأ بترشيح نفسك مستخدمًا فكرة الديمقراطية . . ولتشجع مفتاحًا أو راوية على أن يترشّحا حتى تكتمل الشكليات» .

لقد وافق الرجل وأخذه الظن أنه بعد هذه الصفقة سيخرج من قسم الشرطة ساحبًا صهره المسكين معه . . وعندما صُدّ برفضنا ، وأننا نسير فى إكمال إجراءات إدانة صهره فهم مدى إصرارنا على إجباره على السير فى طريقنا المرسوم له . . فاستسلم تمامًا . . (ألا ترون معى أنه من المناسب فعلاً أن تقدم للجماهير رئيسًا يتسم أمامهم بالقوة فى مواجهتنا . . ويتسم بالضعف والاستسلام وهو فى حوزتنا؟ . .) .

الدور الآن على ضلعى المنضدة المثلثة . . الضلعين الجانبيين . . الستة أعضاء : المرأتان . . والمسيحيّيْن . . والعامل . . والفلاح . . أصواتهم الستة هى التى ستحسم الرئاسة لصالح رجلنا . . وحتى لو خَدَعنَا منهم صوت أو صوتان فإن مزيدًا من المرشحين سيعمل على تفتيت هذه الأصوات ليضمن رجلنا خمسة أصوات على الأقل . . إننا نبحث لكل عضو من الأعضاء الستة عن مدخل مناسب نوحى له به عن ضرورة انتخاب إمام رئيسًا للحزب . . كلنا عاكفون على دراسة : صباح ونورا وعزت وفيكتور وحمدى وعبد الكريم . . سنجعل «إمام» يتصل بهم فى بيوتهم . . ويقدم لهم خدماته التى سيفاجئون بقدرته على تقديمها . . وسيقرن اتصاله المشفوع بالخدمة برجاء أن تظل زياراته وهداياه لهم سرية . . وطىّ الكتمان . .

لن نقول لإمام من سيكون . . ولمَ نجهزه . . ولكننا سنزرع فيه روحًا جديدة ومن نوع جديد . . روحًا تجعله يقبل أن يَجند نفسه تلقائيًا وبكتمان شديد لمواجهة خطورة الأفكار التى يتبناها أحمد منصور . . تلك الأفكار التى سيفهم أن مظهرها مغلف ببراءة القصد، ولكنه دس فى جوهرها كل سموم الاحتيال . . سنحلل له كل كلمة قالها أحمد منصور تحليلاً يفهم منه أن أحمد منصور أصولى يشجع الإرهاب حتى النخاع، وأنه إنما يتسلل إلى مشروعه تحت غطاء القومية المصرية . . سنحلل كلماته بدءًا من قوله إن مشكلة المواطن العادى تنحصر فى هم بطنه . . ومشكلة المثقف تنحصر فى هم بطنه وعقله معًا . . وإن قضيته العظمى كمحام هى قضية مصر . . القضية التى لم يكسبها . . ولم يكسب منها . . إنه يأتى بفكر خطير، يكفى أنه وافق أن يكون الحصان الجامح المشاكس هو الرمز الواضح لحزبه ، ثم قوله إنه سيتسلل إلى مشروعه مستخدمًا أمريكا نفسها فى إحياء هذا المشروع . . وسنذكّره بما قاله عنّا من أن الراكب فى صحبتنا مركوب . . وأنه سيمتطى مشروعنا الوليد وهو بث الديمقراطية فى بلدان العالم الثالث . . ورغم أنه استفاد من مشروع عبد الناصر ومشروع السادات فإنه لن يقلدهما فيما فعلاه مع أمريكا . . نكوص هنا أو ارتماء هناك . . إذن، فماذا سيفعل أحمد منصور؟ . . هذا هو اللغز الذى جَعَلنا نخشاه . . ونعمل على إزاحته . .

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى ج . م . ع

التوقيع : . . . . . .

* * *